مواقف في
الورع والعفة والزهد

د . عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد : فهذه توجيهات ومواقف سلوكية، في مجالات الورع والعفة والزهد والعبادة، والعمل الصالح عموماً، وقد تم تتبع هذه التوجيهات وجمعها من سيرة الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان، ولم يكن المقصود من ذلك استقصاء هذه الأخبار، وإنما رصدت ما تم جمعه أثناء قراءتي في أمهات كتب التاريخ والتراجم وغيرها، وها أنذا أقدمها لإخواني القراء لأخذ العبرة منها في مجال تعديل السلوك وتقويمه في هذه الحياة، حيث إن فيها نماذج من حياة الاعتدال في النظر إلى الدنيا ودقة الموازنة بينها وبين الآخرة، كما أ ا تمثل صوراً من حياة السلف الصالح الذين استطاعوا كبح جماح أنفسهم وسياستها نحو الاستقامة والاعتدال، وذلك يبعث على تتبع آثارهم وحسن الاقتداء م.

- مواقف في الورع والعفة والزهد -

(١)

نماذج من ورع النبي ﷺ وزهده وخشيته :

لقد كان رسول الله ﷺ إمام المسلمين في الورع والزهد وخشية الله تعالى وفي غير ذلك من أمور الدين ، وقد ضرب من نفسه مثلا أعلى في تطبيق مادعا المسلمين إليه، فمن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عقبة بن الحارث النوفلي قال : صليت مع النبي ﷺ العصر، فلما سلم قام سريعا ، دخل على بعض نسائه ، ثم خرج ورأى مافي وجوه القوم من تعجبهم لسرعته، فقال: ذكرت وأنا في الصلاة – تبرا عندنا فكرهت أن يمسى – أو يبيت– عندنا ، فأمرت بقسمته[1] .

وإن هذا التصرف من رسول الله ﷺ يعد مثالا عاليا للشعور بالمسؤولية ، والتحري الدقيق في القضايا المالية ، والمبادرة إلى تنفيذ التكاليف الشرعية وإن لم يكن وقت تنفيذها محددا خشية النسيان أو حضور الأجل .

وهذا لون من ألوان التربية النبوية المؤثرة حيث إن خروج النبي ﷺ من المسجد بهذه الصورة أثار عجب الصحابة وتساؤلهم فتهيأت نفوسهم لاستقبال هذا التوجيه العملي نحو الاهتمام بحقوق المسلمين والإسراع في إيصالها إلى مستحقيها .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد بإسناده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ وجد تحت جنبه تمرة من الليل فأكلها فلم ينم تلك الليلة ، فقال بعض نسائه : يارسول الله أَرِقْت الليلة ؟ قال : "إني وجدت تحت جنبي تمرة فأكلتها وكان عندنا تمر من تمر الصدقة فخشيت أن تكون منه" [2] .

فهذا مثال على شدة ورع النبي ﷺ وعظم خشيته من الله تعالى ، فقد أرق ليلة كاملة من أكل تلك التمرة على قلتها خشية أن تكون من الصدقة ، وقد حرم الله تعالى الصدقة على بني هاشم، وبهذا الورع الشديد والخشية البالغة كان ﷺ قدوة عليا لأمته في ذلك .

وأخرج الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "ومات رسول الله ﷺ وماترك دينارا ولادرهما ولاعبدا ولا وليدة ،وترك درعه رهنا عند يهودي بثلاثين

---

(1) صحيح البخاري ، رقم ١٢٢١ ، العمل في الصلاة (٨٩/٣) ، والتبر هو الذهب .

(2) شمائل الرسول لابن كثير /١١٣ – ١١٤ .

صاعا من طعام"[1] .

وهذا مثل أعلى في الزهد في الدنيا والتقلل من متاعها ، فلقد كان بإمكان رسول الله ﷺ أن يكون أغنى رجل في العرب وربما في العالم ، فلقد أفاء الله تعالى عليه في الغزوات أموالا عظيمة، ويكفي مثالا على ذلك غزوة حنين حيث كان يعطي الرجل الواحد مابين جبلين من الغنم والإبل، وأعطى عددا من زعماء العرب وأكابرهم كل واحد مائة من الإبل ولم يدخر لنفسه من ذلك شيئا، والتحق ﷺ بالرفيق الأعلى وهو على تلك الصفة المذكورة من التقشف والزهد البالغ .

وأخرج الإمام أحمد بإسناده عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت علي امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية ، فرجعت إلى منزلها ، فبعثت إلي بفراش حشوه الصوف، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال: ماهذا ؟ فقلت : فلانة الأنصارية دخلت علي فرأت فراشك فبعثت إلي بهذا ، فقال : رديه ، فلم أرده وأعجبني أن يكون في بيتي ، حتى قال لي ذلك ثلاث مرات، فقال: ياعائشة رديه فو الله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة ، فرددته[2] .

وهذا أعظم مايتصور من الزهد أن يكون بالإمكان أن تتحول الجبال ذهبا وفضة لرسول الله ﷺ - بإذن الله تعالى – ثم يزهد في ذلك كله وينام على عباءة ، ويلح على عائشة رضي الله عنها في رد ذلك الفراش !

وأخرج الإمام أحمد بإسناده من حديث أبي عبد الرحمن سفينة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ : أن رجلا ضاف عليا رضي الله عنه ، فصنع طعاما ، فقالت فاطمة رضي الله عنها : لو دعونا رسول الله ﷺ فأكل معنا ، فدعوه ، فجاء فوضع يديه على عضادتى الباب فرأى قراما في ناحية البيت عليه صورة فرجع ، فقالت فاطمة : الحقه فاسأله ، فقال رسول الله ﷺ : "إنه ليس لي – أو لنبي – أن يدخل بيتا مزوقا"[3] .

وهكذا فزع النبي ﷺ من رؤية ذلك القماش الذي علق في ناحية من البيت ورجع

([1]) الزهد للإمام أحمد / ٤ .

([2]) الزهد / ١٤ .

([3]) الزهد / ٧ .

ولم يدخل حتى أزيل ذلك القماش لكونه من مظاهر الدنيا .

وأخرج ابن سعد بإسناده عن جندب بن سفيان قال : أصابت النبي ﷺ أشاءَةُ نخلـة فأدمت إصبعه ، فقال: ماهي إلا إصبع دميت' وفي سبيل الله مالَقيت ، قال: فحمل فوضع على سرير مرمول بِشرط [1] ، ووضع تحت رأسه مرفَقة من أدم [2] محشوة بليف ، فـدخل عليه عمر وقد أثر الشريط بجنبه فبكى عمر فقال: ما يبكيك ؟ قال: يارسول الله ذكـرت كسرى وقيصر يجلسون على سرر الذهب ويلبسون السندس والإستبرق – أو قال الحرير والإستبرق – فقال: أما ترضون أن تكون لكم الآخرة ولهم الدنيا ؟ [3] .

وهكذا كان سرير النبي ﷺ ـذه الصلابة والخشونة حتى أثر على جنبه ، وقد أثار هذا المنظر شفقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وتذكر ماعليه ملوك فارس والروم ، مـن الترف والنعيم، فقارن بين المشهدين فبكى ، وقد بين له النبي ﷺ أن هدف أولئك الدنيا ، وقد ـلوا منها بأوفر نصيب ، ولكن لاحظ لهم في الآخرة ، وأن هدف المسلمين الحصول على السعادة الأخروية، فلذلك أضعفوا من نصيبهم في الدنيا .

ومن أمثلة ورع النبي ﷺ ما أخرجه الإمام أبو داود من حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن رجل من الأنصار قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فرأيته ﷺ وهو على القبر يوصي الحافر يقول : أوسع من قبل رجليه ، أوسع من قبل رأسه ، فلما رجع استقبله داعي امرأة فأجاب ونحن معه فجيء بالطعام فوضع يده ، ثم وضع القوم فأكلوا ، ففطـن آباؤنا والنبي ﷺ يلوك لقمة في فيه- يعني فطنوا لتغير وجه النبي ﷺ - ، ثم قال: أجد لحم شاة أُخذَت بغير إذن أهلها ، فأرسلت المرأة تقول : يارسول الله إني أرسلت إلى البقيع – وهو موضع تباع فيه الغنم – لتشترى لي شاة فلم توجد ، فأرسلت إلى جار لي قد اشترى شاة أن يرسل ـا إلي بثمنها ، فلم يوجد ، فأرسلت إلى امرأته فأرسلت ـا إلي فقال ﷺ : أطعميه الأسارى" [4] .

([1]) أي منسوج بحبال من ليف .

([2]) أي وسادة من جلد .

([3]) طبقات ابن سعد ٤٦٦/١ .

([4]) سنن أبي داود رقم ٣٢٣٢ ، البيوع ٦٢٧/٣ .

وفي هذا الحديث نجد حماية الله تعالى نبيه ﷺ من الشبهات حيث أعلمه بأن تلك الشاة أُخذت بغير إذن مالكها ، كما نجد مثالا لورعه العظيم حيث رفع يده ولم يستمر في الأكل من تلك الشاة .

كما نجد مثالا للحزم في تطبيق الشريعة وأن النبي ﷺ لم يكن يداري أحدا في ذلك .

ونجد في هذا الخبر لونا من ألوان التربية النبوية حيث أمسك عن الأكل حالاً ، وأمر المرأة بأن تطعم ذلك الطعام أسرى المشركين وفي ذلك أمر للصحابة بعدم الأكل منه ، وهذه الحادثة وأمثالها تبقَى ماثلة في أذهانهم فيحميهم تذكرها من مقارفة الشبهات .

ونجد مع ذلك عظمة التشريع الإسلامي في حماية حقوق الناس ، فإنه بعد هذا لن يتجرأ أحد على الأخذ من أموال الناس بغير إذنهم وسيتوقف الطرف الآخر عن الاستفادة حتى يتأكد له أن المال مأذون به من مالكه .

وأخرج البلاذري من خبر محمد بن شهاب الزهري أن النبي ﷺ بعث عليا إلى بني جذيمة الذين قتل خالد بن الوليد منهم من قتل ، بدرج فيه ذهب فأعطاهم ديات من قتل منهم وما أصيب من أموالهم ، وفضل في الدرج شيء من الذهب فقال لهم علي : هل لكم في أن أعطيكم هذا الفضل على أن تبرئوا رسول الله ﷺ مما أصيب لكم مما لاتعلمونه ولايعلمه رسول الله ﷺ ؟ قالوا:نعم ،فأعطاهم ذلك الفضل،فلما بلغ النبي ﷺ مافعل قال:"لهذا أحب إلي من حمر النعم" [1] .

وهكذا كانت فرحة رسول الله ﷺ عظيمة حينما أبرأ علي رضي الله عنه ذمته بذلك المال حيث ذكر بأن محبته لذلك أعظم من محبته لحمر النعم ، وحمر النعم هي الإبل وهي أنفس الأموال عند العرب ، وهذا مثال على ورع النبي ﷺ واهتمامه ببراءة الذمة من مسؤولية الناس .

كما أن هذا الخبر يدل على علم علي رضي الله عنه العميق واهتمامه بالورع .

* * *

---

(1) أنساب الأشراف ٣٥٤/٢ .

- مواقف في الورع والعفة والزهد -

من مواقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

اشتهر الصحابة رضي الله عنهم بالورع والزهد ، ومن أخبار أبي بكر الصـديق في ذلك مارواه الإمام أحمد بإسناده عن قيس بن أبي حازم قال: كان لأبي بكر غلام فكان إذا جاء بغلته لم يأكل من غلته حتى يسأله ، فإن كان شيئًا مما يحب أكل ، وإن كان شـيئًا يكره لم يأكل، قال: فنسي ليلةً فأكل ولم يسأله ، ثم سأله فأخبره أنه من شيء كرهـه، فأدخل يده فتقيأ حتى لم يترك شيئًا [1].

وفي رواية أنه لم يستطع إخراج تلك اللقمة فقال له من حوله : إ ا لاتخرج إلا بالماء ، فشرب فخرجت ، فقيل له : رحمك الله ، كل هذا من أجل هذه اللقمة ، فقال : لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : "كل جسم نبت من حرام فالنار أولى به " .

فهذا مثال على ورع أبي بكر رضي الله عنه حيث كان يتحرى الحلال في مطعمه ومشربه، ويجتنب الشبهات ، وهذه الخصلة تدل على بلوغه درجات عليا في التقوى ، ولايخفَى أهمية طيب المطعم والمشرب والملبس في الدين ، وعلاقة ذلك بإجابة الدعاء ، كما في حديث الأشعث الأغبر وفيه "يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام، وغُذى بالحرام ، فَأنى يستجاب لذلك [2].

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن أبي مليكة قال قالت عائشة رضي الله عنها : لما حضر أبي رحمه الله دعاني فقال : يابنية إني كنت أعطيتك تمر خيـبر ولم تكوني أخذتيها وإني أحب أن ترديها علي ، قالت : فبكيت ، ثم قلت : غفر الله لك يا أبة والله لو كانت خيبر ذهبا جميعا لردد ا عليك ، فقال: هي على كتاب الله عز وجل

([1]) الزهد / ١١٠ .

([2]) صحيح مسلم ، الزكاة ، رقم ١٠١٥ (٧٠٣/٢) .

، يابنية إني كنت أتجر قريش [1] وأكثرهم مالا ، فلما شغلتنِي الإمارة رأيت أن أصيب من المال بقدر ما شغلني ، يابنية هذه العباءة القطوانية وحلاب [2] وعبد ، فإذا مت فأسرعي به إلى ابن الخطاب ، يابنية ثيابي هذه فكفنوني فيها ، قالت : فبكيت وقلت : يا أبة نحن [في غنى] من ذلك ، فقال: غفر الله لك وهل ذلك إلا للمهل [3] ؟ وفي رواية أنه قال: الحي أولى بالجديد من الميت .

قالت : فلما مات بعثت بذلك إلى ابن الخطاب فقال : يرحم الله أباك لقد أحب أن لايترك لقائل مقالا [4] .

فهذا مثل آخر من ورع أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فقد أراد أن يخرج من الدنيا وهو نقي خالص من الكدر أو مايشبهه ، وقد كان يأخذ من بيت مال المسلمين مايكفيه للحد الضروري من المعيشة مقابل تفرغه لأمور المسلمين وترك التجارة ، فلما حضرته الوفاة رأى أن ذمته لاتبرأ إلا برد ماكان عنده من ذلك وإن كان يسيرا لتوقف عمله لصالح المسلمين بالوفاة ، وذلك مبالغة منه رضي الله عنه في براءة الذمة .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي قال : كنت أخدم النبي ﷺ ... وذكر حديثًا ثم قال : إن رسول الله ، أعطاني بعد ذلك أرضا وأعطى أبا بكر أرضا وجاءت الدنيا فاختلفنا في عذق نخلة ، فقلت أنا : هي في حدي ، وقال أبو بكر ، هي في حدي ، فكان بيني وبين أبي بكر كلام ، فقال أبو بكر كلمة كرهها وندم فقال لي : ياربيعة رد عليها مثلها حتى تكون قصاصا ، قال : قلت : لا أفعل ، فقال أبو بكر ، لتقولن أو لأستعدين عليك رسول الله ﷺ ،فقلت : ما أنا بفاعل ، قال: ورفض الأرض [5] وانطلق أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ ، وانطلقت أتلوه ، فجاء ناس من أسلم فقالوا لي : رحم الله أبا بكر ، في أي شيء يستعدي عليك رسول الله ﷺ وهو قال

([1]) لعلها : من أتجر قريش .

([2]) أي ناقة حلوب .

([3]) أي لمدة قصيرة ثم يبلى .

([4]) الزهد / ١١١ .

([5]) أي فارق أبو بكر الأرض .

لك ماقال ، فقلت : أتدرون من هذا ؟ هذا أبو بكر الصديق ، هذا ثاني اثنين ، وهذا ذو شيبة المسلمين ، إياكم لايلتفت فيراكم تنصروني عليه فيغضب، فيأتي رسول الله ﷺ فيغضب لغضبه فيغضب الله عز وجل لغضبهما فيهلك ربيعة ، قالوا: ماتأمرنا ؟ قال: ارجعوا، قال : فانطلق أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فتبعته وحدي حتى أتى النبي ﷺ فحدثه الحديث كما كان ، فرفع إلي رأسه فقال: ياربيعة مالك وللصديق ؟ ! قلت : يارسول الله كان كذا كان كذا ، قال لي كلمة كرهها فقال : قل لي كما قلت حتى يكون قصاصا فأبيت ، فقال رسول الله ﷺ : أجل فلا ترد عليه ، ولكن قل : غفر الله لك يا أبا بكر ، فقلت: غفر الله لك يا أبا بكر .

قال : قال الحسن [البصري] : فولى أبو بكر رضي الله عنه وهو يبكي [1] .

فهذا الخبر يدل على ورع أبي بكر الصديق رضي الله عنه وخشيته من الله تعالى،فحينما قال –في ساعة غضب–تلك الكلمة لربيعة بن كعب رضي الله عنه ندم على ذلك ،وخشى أن يحاسب عليها يوم القيامة،فأهمه ذلك الأمر وطلب من ربيعة أن يرد عليه بمثلها ليطهر صحيفته منها، فلما أبي اشتكاه إلى النبي ﷺ ليضمن النجاة من مغبة تلك الكلمة،وهذا أمر عجيب فإن أبابكر قد نسى أرضه ونسي قضية الخلاف،وشغل باله أمر تلك الكلمة لأن حقوق العباد لابد فيها من عفو صاحب الحق.

وقد استنكر قوم ربيعة أن يذهب أبو بكر يشتكي إلى رسول الله ﷺ وهو الذي قال ماقال ، ولم يعلموا ماعلمه أبو بكر من لزوم إ اء قضايا الخصومات ، وإزالة ماقد يعلق في القلوب من الموجدة في الدنيا قبل أن يكتب ذلك في الصحف ويترتب عليه الحساب يوم القيامة .

وعلى الرغم مما ظهر من رضى ربيعة وتوجيه النبي ﷺ إلى عدم الرد على أبي بكر فإن أبا بكر قد بكى من خشية الله تعالى ، وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه .

وأخيرا موقف يذكر لربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه ، حيث قام بإحلال أبي بكر رضي الله عنه ، وأبى أن يرد عليه بالمثل ، وهذا من تقدير أهل الفضل والتقدم والمعرفة بحقهم ، وهو دليل على قوة الدين ورجاحة العقل .

([1]) مسند أحمد ٥٨/٤ – ٥٩ .

ومن ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من حديث عائشة وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم وغيرهم أنهم قالوا: بويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم قبض رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من مهاجر رسول الله ﷺ ، وكان منزله بالسنح عند زوجته حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير من بني الحارث بن الخزرج ، وكان قد حجر عليه حجرة من شعر فما زاد على ذلك حتى تحول إلى منزله بالمدينة ، فأقام هناك بالسنح بعدما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه إلى المدينة ، وربما ركب على فرس له ، وعليه إزار ورداء ممشق ، فيوافي المدينة فيصلي الصلوات بالناس ، فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسنح ، فكان إذا حضر صلى بالناس ، وإذا لم يحضر صلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قالوا : وكان يقيم يوم الجمعة في صدر النهار بالسنح يصبغ رأسه ولحيته ، ثم يروح لقدر الجمعة فيجمع بالناس ، وكان رجلا تاجرا ، فكان يغدو كل يوم السوق فيبيع ويبتاع ، وكانت له قطعة غنم تروح عليه ، وربما خرج هو نفسه فيها ، وربما كُفيها فرعيت له ، وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي : الآن لاتحلب لنا منائح دارنا ، فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمري لأحلبنها لكم ، وإني لأرجو أن لايغيرني مادخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهم فربما قال للجارية من الحي : ياجارية أتحبين أن أرغي لك أو أصرح [1]؟ فربما قالت: أرغ ، وربما قالت : صرح ، فأي ذلك قالت فعل .

قالوا : فمكث كذلك بالسنح ستة أشهر ، ثم نزل إلى المدينة فأقام بها ، ونظر في أمره فقال: لا والله مايصلح أمر الناس التجارة ، ومايصلح لهم إلا التفرغ والنظر في شأنهم، ومابد لعيالي مما يصلحهم ، فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين مايصلحه ويصلح عياله يوما بيوم ، ويحج ويعتمر ، وكان الذي فرضوا له كل سنة ستة آلاف درهم [2] ، فلما حضرته الوفاة قال: ردوا ماعندنا من مال المسلمين ، فإني لا أصيب من هذا المال شيئا ، وإن أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم ،فدفع ذلك إلى

---

(1) أي أجعل للحليب رغوة أو اجعله خالصا منها .

(2) لكن الظاهر أنه لم يقبل ذلك لأن المشهور أنه كان ينفق درهمين كل يوم .

عمر رضي الله عنه ولَقُوح [1] وعبد صيقل [2] وقطيفة ماتساوي خمسة دراهم ، فقال عمر : لقد أتعب من بعده [3] .

ففي هذا الخبر بيان شيء من أخلاق أبي بكر الصديق رضي الله عنه وزهده وورعه ، فمن ذلك أنه كان يحلب لأهل حيه أغنامهم ، وهذا تواضع كبير من رجل كبير .. كبير في سنه ، وكبير في منزلته وجاهه ، حيث كان خليفة المسلمين ، وكان حريصا على أن لاتغير الخلافة شيئا من معاملته للناس وإن كان ذلك سيأخذ عليه وقتا هو بحاجة إليه ، كما أن هذا العمل يدلنا على مقدار تقدير الصحابة رضي الله عنهم لأعمال البر والإحسان وإن كلفتهم الجهد والوقت .

ومن ذلك أنه اكتفى بذلك المبلغ البسيط الذي كان يأخذه من بيت المال مقابل تفرغه للولاية، وهذا مثل على زهده في الحياة الدنيا واكتفائه منها بما يبلغه للحياة الآخرة .

ومن ذلك تورعه عما بقي عنده من المال العام حينما حضرته الوفاة ، وهو مبلغ زهيد لايلفت النظر، ولكن لدقة إحساسه تنبه له ، وكذلك ماقام به من الوصية بتعويض بيت مال المسلمين بأرضه المذكورة مقابل ما أنفق على نفسه وعياله منه ، وهكذا رغب في أن يكون عمله في الولاية تطوعا تعففا منه وورعا رضي الله عنه ، ولقد أثنى عليه عمر رضي الله عنه ببيان أن العمل الذي قام به لايستطيع أحد أن يقوم به إلا بصعوبة بالغة .

* * *

---

(1) أي ناقة صغيرة .

(2) أي يصقل السيوف ويحدها .

(3) طبقات ابن سعد ١٨٥/٣ – ١٨٧ .

- مواقف في الورع والعفة والزهد –
(٣)

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

لقد كانت لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه جهود في حماية المسلمين من الدخول في حياة الترف والنعيم ومايترتب على ذلك من نتائج سيئة في الدنيا والآخرة ومن ذلك ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا : ولما نزل أهل الكوفة الكوفة واستقرت بأهل البصرة الدار عرف القوم أنفسهم وثاب إليهم ماكانوا فقدوا ، ثم إن أهل الكوفة استأذنوا في بنيان القصب واستأذنه فيه أهل البصرة ، فقال عمر : العسكر أجد لحربكم وأذكى لكم وما أحب أن أخالفكم ، وما القصب ؟ قالوا : العكْرش إذا روِي قصب فصار قصبا [1] قال : فشأنكم فابتنى أهل المصرين بالقصب .

ثم إن الحريق وقع بالكوفة والبصرة وكان أشدهما حريقا الكوفة ، فاحترق ثمانون عريشا، ولم يبق فيها قصبة في شوال ، فما زال الناس يذكرون ذلك ، فبعث سعد منهم نفرا إلى عمر يسأذنون في البناء باللبِن فقدموا عليه بالخبر عن الحريق وما بلغ منهم – وكانوا لايدعون شيئا ولايأتونه إلا وآمروه فيه [يعني شاوروه] – فقال : افعلوا ولايزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات [يعني غرف] ولاتطاولوا في البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة ، فرجع القوم على الكوفة بذلك ، وكتب عمر إلى عتبة وأهل البصرة بمثل ذلك .

قال : وعهد عمر إلى الوفد وتقدم إلى الناس أن لايرفعوا بنيانا فوق القدر ، قالوا: وما القدر؟ قال: مالا يقربكم من السرف، ولايخرجكم من القصد [2] .

هذا ومن استعراض هذا الخبر يتبين لنا أن أولئك القوم كانوا زاهدين في مظاهر الدنيا ، فهم يريدون من المساكن مايكنهم من الشمس والمطر والبرد والحر ، ولايهمهم التمتع بالقصور والبيوت العالية ، ولذلك اختاروا التعريش بالقصب الذي كان أيسر الأشياء

([1]) العكرش نبات شوكي ينبت من نزوز الأرض .

([2]) تاريخ الطبري ٤٣/٤ .

لديهم حتى اضطروا إلى البناء بالطين ، ومع ذلك نجد عمر رضي الله عنه يضع لهم الاحتياطات اللازمة لمنع التنافس والتطاول في البنيان .

وهذا إدراك بعيد المدى لما يتوقع أن تكون عليه الأمة من الغنى بعد الفتوح ، فهو يحاول في هذا التوجيه وأمثاله أن يحد من اندفاع الأمة نحو الإسراف والترف ، وأن يحملها على حياة القصد والاعتدال .

وإن هذا التوجيه له أصل من سنة رسول الله ﷺ ، وذلك في قوله : النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه " .

أخرجه الإمام الترمذي من طريقين وقال: هذا حديث صحيح [1] .

ومن كلام عمر رضي الله عنه السابق يتبين لنا أن المقصود بالبناء الذي لاخير فيه ماقرب من الإسراف وأخرج من القصد والاعتدال .

وإن من أعظم مظاهر الإسراف التطاول في البنيان ، وذلك لأن البنيان يستهلك من الإنسان- مالا كثيرا ووقتا طويلاً ، فإذا انصرف له الإنسان بالاهتمام استحوذ على تفكيره حتى يبقى هو الهم الأكبر عند بعض الناس .

ومن أجل إقامة بنيان يتفوق فيه الإنسان على من دونه ويحاذي فيه من يرى أ م في طبقته في الغنى أو يطاول من هم أعلى منه في ذلك . من أجل ذلك يضع ثروته في تشييد القصر الذي سيسكنه، وقد يستدين من أجل أن يحقق في نفسه هذه الرغبة ، فيبقى عمرا من عمره ولا مال له إلا هذا القصر الذي يكمل فيه ويجمل ، غير ملتفت إلى مايكون قد قصر فيه من النفقة الواجبة ولا إلى ما أهمله من عبادة الزكاة التي هي الركن الثالث من أركان الإسلام والتي لايستطيع أن يجمع نصا ا لإنفاقه ماله في التطاول في البنيان .

ولئن كان مايخشاه عمر رضي الله عنه من الانفتاح الدنيوي في عهده ويحاول أن يحجز الأمة عن التوغل فيه في ناحية البنيان لايعدو أن يكون بناء محدودا ينتهي إعداده في أمد قصير فإن إعداد البناء في عصرنا هذا قد يستغرق سنوات من العمر ، ثم قد يعقبه في أحوال كثيرة ديون متراكمة يظل صاحبها يجمع فضول أمواله لسدادها ، وقد يمر عليه سنون من عمره وهو لايعرف عن الزكاة شيئًا مع أنه يعد من المتوسطين في الغنى الذين هم

([1]) سنن الترمذي ، أبواب صفة القيامة ، باب ٤٠ رقم ٢٤٨٢ و ٢٤٨٣ .

غالبية الناس ، لأن القصور التي تعارف أكثر الناس عليها تتطلب أنواعا غاليةً من الأثـاث والكماليات التي ترهق طالبها وتجعله يظل يلاحق أنفاسه سنوات عله يصل إلى ماتصبو إليه نفسه من مشاكلة الناس في مظاهر الحياة الدنيا.

وفي خضم هذا التنافس تضيع أحيانا بعض مطالب الإسلام الحيوية من العبادات المالية التي على رأسها الزكاة والإنفاق على المجاهدين في سبيل الله تعالى ، كما أنه قد ينشـغل فكر الإنسان أحيانا عن الأمور المهمة كالصلاة وطلب العلم .

وقول عمر " مالا يقربكم من السرف ولايخرجكم من القصد" يعني أن حدود البناء المشروع مالايقرب صاحبه من الإسراف وهو مجاوزة الحد المشروع ولايخرجه من حدود الاعتدال، وقد ترك عمر رضي الله عنه تحديد ذلك لهم ، لكل بلد عرفًا خاصا به ، يتحدد به الإسراف والاعتدال والتقتير ، فالقصد إذًا يحدده العرف السائد في البلد لدى أوسـاط الناس من أهل الاستقامة والالتزام بالاعتدال في الأمور الدنيوية .

فإذا شرع المسلم في بناء بيت فلْيلاحظ هذا العرف العام ، ولاينبغي له أن يتعـرض لنقد أهل الصلاح والتقوى ، خاصة إذا كان من أهل العلم الديني ، حيـث يفتـرض في هؤلاء أن يكونوا قدوة صالحة لمجتمعهم ، وأن يكونوا هم الذين يحددون العرف الصـالح الذي يسير عليه أفراد المجتمع الإسلامي .

وقوله "والزموا السنة تلزمكم الدولة" يعني أن الالتزام بالطريق المستقيم الذي سـار عليه رسول الله ﷺ سبب في الإدالة على الناس والتمكين في الأرض،كما جاء في قول الله تعالى﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النـور : 55] .

ولقد كان هذا التزهيد من عمر رضي الله عنه في مظاهر الدنيا مع أن المسلمين آنذاك كانوا يتنافسون في هذا الزهد ، فكيف بمن جاؤوا بعدهم على مر العصور ممن يتنافسون على مظاهر الدنيا؟

هذا ولقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حريصا على علاج أمـر الانفتـاح المادي الذي كان في عصره حيث فتحت بلاد الفرس وأجزاء من بلاد الروم ، فأفـاء الله تعالى على المسلمين من غنائم الفتوح وفيء البلاد وخراجها أموالا عظيمة ، ولقد خطـب أمير المؤمنين عمر خطبة بليغة شخص فيها ذلك الواقع وأرشد المسلمين إلى السلوك الأمثل .

وإن واقع المسلمين اليوم في بعض بلادهم يشبه ماكان في عهد الصحابة رضـي الله عنهم إبان الفتوح ، من ناحية انفتاح خزائن الأرض وتوافر الأموال بشكل لم تتوقعه الأمة ولم تترقب حصوله بذلك المستوى الكبير ، وإن خطبة أمير المؤمنين عمر التي سيتم عرضها تظل جديدة نابضة بالحياة والعطاء ، حيث تعالج واقعا نعاصره ، وإذا كان الصحابة رضي الله عنه ومن عاصرهم من التابعين بحاجة إلى هذه الوصايا النافعة فإننا في هذا العصر أحوج إلى ذلك بكثير ، لأن مستوى الإيمان أقل، ومستوى البصيرة أخف .

ولقد كان عمر رضي الله عنه يخشى على الأمة آنذاك من الغفلة عن شكر المنعم جل وعلا، فقام مذكرا بالله تعالى ومايجب له من الشكر والتوحيد الخاص ، حيث قـال: "إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحُجج فيما آتاكم مـن كرامة الآخرة والدنيا، عن غير مسألة منكم له ولارغبة منكم فيه إليه " .

فذكرهم بأن تلك النعم العظيمة التي أفاءها الله تعالى عليهم من الفتوح لم يكونـوا يتوقعو ا على ذلك النحو العظيم ، ثم ذكرهم بالهدف العالي الذي خلقهم الله جل وعـلا من أجله، وماسخر لهم من النعم حيث قال: " فخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شـيئًا لنفسه وعبادته ، وكان قادرا على أن يجعلكم لأهون خلقه عليه ، فجعل لكم عامة خلقه ، ولم يجعلكم لشئ غيره، وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ علـيكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وحملكم في البر والبحر ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ، ثم جعل لكم سمعا وبصرا" .

فقد ذكر الميزة العظمى للإنسان حيث شرفه الله تعالى على سائر المخلوقات في هذه الأرض، فسخر كل مافيها له ، ولم يسخره لشيء من المخلوقات الأخرى، وبين الهـدف

الأعلى من خلق الإنسان وهو القيام بعبادة الله تعالى وحده ، مع تذكر شمول العبادة لكل عمل مشروع أراد به فاعله وجه الله تعالى ، ومن ذلك عمارة الأرض بطاعته سبحانه .

ثم ذكر النعم التي خص الله ا هذه الأمة حيث قال : "ومن نعم الله تعالى عليكم نِعم عم ا بني آدم – يعني كالتي مر ذكرها – ومنها نعم اختص ا أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعمة نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قُسم ماوصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبـهم شـكرها وقَدحهم حقها ، إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله " .

ومن النعم التي اختص الله ا أهل هذا الدين كون السيادة في العالم لهذه الأمـة ولم تكن قبل ذلك لأهل دين من الأديان ، وأصبح مايوجد في بلاد العالم من النعم الخاصـة والعامة يجتمع في دولة الإسلام لأ ا قد هيمنت على دول العالم .

وفي قوله " إلا بعون من الله مع الإيمان بالله ورسوله" بيان للدوافع القوية التي تـدفع إلى شكر المنعم جل وعلا ، من الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ ، وما يتفرع عن ذلك مـن العمل الصالح، ثم بالاستعانة بالله جل وعلا مع تعظيمه وإجلاله وصدق النية .

ثم يبين مهمة هذه الأمة في الأرض بعدما أفاء الله عليها من الفتح والتمكين حيـث يقول:" فأنتم مستخلفون في الأرض قاهرون لأهلها قد نصر الله دينكم ، فلم تصبح أمـة مخالفةً لدينكم إلا أمتان: أمة مستعبدة للإسلام وأهله يجزون لكم [1] يستصفَون معايشهم وكدائحهم ورشح جباههم، عليهم المؤونة ولكم المنفعة ، وأمة تنتظر وقائع الله وسطواته في كل يوم وليلة، قد ملأ الله قلو م رعبا ، فليس لهم معقل يلجئون إليـه ، ولامهـرب يتقون به ، قد دهمتهم جنود الله عز وجل ونزلت بساحتهم " .

فهذه الأمة الإسلامية قد اختارها الله تعالى لتكون فيها الرسالة الخاتمة ، ولتتولى قيادة البشرية، فمكن لها واستخلفها في الأرض وأذل لها أمة الفرس التي كانت تسـيطر علـى المشرق وأزال دولتهم من الوجود ، وأصبحت بلادهم جزءًا من دولة الإسلام ، كما أذل الله تعالى لها أمة الروم التي تسيطر على المغرب ، حيث اكتسحت جنود الإسـلام بـلاد الشام ومصر التي كانت تحت سيطر م ، ثم غزوهم في عقر دارهم .

---

(1) يعني يدفعون لكم الجزية .

ثم يعدد نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث يقول :"مع رقَاغَة العيش – يعني سعته – واستفاضة المال وتتابع البعوث ، وسد الثغور بإذن الله تعالى ، مع العافية الجليلة العامة التي لم تكن هذه الأمة على أحسن منها مذ كان الإسلام ، والله المحمود ، مع الفتوح العظام مع كل بلد، فما عسى أن يبلغ مع هذا شكر الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين ، مع هذه النعم التي لايحصى عددها ولايقْدر قدرها ، ولايسطاع أداء حقها إلا بعون الله ورحمته ولطفه ، فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته" .

وعمر رضي الله عنه في هذا الكلام يحث على شكر هذه النعم ويبين أنه مع شكر الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين بالعبادة لن يستطيع المسلمون بلوغ شكرها ولا أداء حقها إلا إذا شملهم الله تعالى بعونه ورحمته ولطفه .

وهذا يعد فهما وتطبيقا للآية الكريمة التي شرع الله تعالى لنا تكرارها في كل صلاة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة :٥] فإذا لم يكن هناك عون من الله تعالى للعبد فإنه لايصل إلى مقام الشكر وإن اجتهد في العبادة ، وما أحسن قول الشاعر :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول مايجني عليه اجتهاده

وإذا لم يشمل الله تعالى عباده برحمته ولطفه فإنهم هالكون كما قال رسول الله ﷺ "لايدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا: ولا أنت يارسول الله ! قال " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، ووضع يده على رأسه" [1].

ثم ختم خطبته بتذكير المؤمنين بنعمة الله تعالى عليهم حيث جمع لهم بين خيري الدنيا والآخرة، والحال أن الظفر بخير الآخرة وحده يكفي لشعور المؤمن بنعمة ربه العظمى عليه، فكيف إذا جمع معه خير الدنيا ؟

إلى أن قال : فأذكركم الله الحائل بين قلوبكم إلا ماعرفتم حق الله فعملتم به، وقسرتم أنفسكم على طاعته، وجمعتم مع السرور بالنعم خوفًا لها ولا نتقالها ووجلاً منها

---

(١) مسند أحمد ٢٥٦/٢ .

ومن تحويلها ، فإنه لاشيء أسلب للنعمة من كُفرا َا ، وإن الشكر أمن للغير ونماء للنعمة ، واستجلاب للزيادة، هذا الله علي من أمركم و يكم واجب [1] .

*   *   *

---

(1) تاريخ الطبري ٢١٧/٤ .

- مواقف في الورع والعفة والزهد –
(٤)
- من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه –
(٢)

ولقد كان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مواقف كـثيرة في الزهـد والورع نذكر نماذج منها ، فمن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: أُتي عمر بمال فوضع في المسجد ، فخرج إليه يتصفحه وينظـر إليـه فهملت عيناه ، فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين مايبكيك فـو الله إن هذا لَمن مواطن الشكر ، فقال عمر: إن هذا والله ما أُعطيه قوم قط إلا أُلقي بينهم العداوة والبغضاء [١] .

فهذا يعد من فقه عمر رضي الله عنه فقد أشفق على المسلمين من أن يفتتنوا بالدنيا ، فتكون سببا في تباعد قلوبهم وإثارة النزاع بينهم ، ولقد بلغ به التأثر من ذلـك إلى حـد البكاء ، وقد اختلفت نظرة الصحابيين الجليلين رضي الله عنهما إلى ذلك المال ، فنظر إليه عمر على أنه سبب من أسباب الفتنة ، ونظر إليه عبد الرحمن بن عوف على أنه نعمة من الله تعالى ، وكلا النظرتين تصدقان على ذلك المال ، وكل واحد من هذين الصـحابيين يدرك النظرتين كلتيهما ، لكن في تلك اللحظة غَلَب على فكر عمر الإشفاق على الأمـة من الخطر الذي هي مقْدمة عليه فبكى ، وغلب على عبد الرحمن بن عوف ملاحظة شكر النعمة فأظهر الفرح .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى من حديث يحيى بن جعدة قال: قال عمر رضي الله عنه : لولا ثلاث لأحببت أن أكون قد لقيت الله عز وجل : لولا أن أضع جبهتي لله عز وجل ، وأجلس في مجالس ينتقَى فيها طيب الكلام كما ينتقى فيها طيـب التمر ، وأن أسير في سبيل الله عز وجل [٢] .

ففي هذا الخبر حدد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنواعا من الأعمـال الصـالحة

---

[١] الزهد /١١٥ .

[٢] الزهد /١١٧ .

يحب البقاء في الحياة من أجلها ، فالمؤمن الحق يحب لقاء الله تعالى ، لأن هذه الحياة الدنيا ليست دار قراره وإنما دار قراره الحياة الآخرة ، فهو يشتاق إلى نعيمها المقيم ، ولايحب البقاء في الدنيا إلا للعمل الصالح الذي يرفع من درجاته في حياته الباقية ، وقد أشار عمر إلى ثلاثة من أجل الأعمال الصالحة، وهي الصلاة ، ومجالس العلم والذكر ، والجهاد في سبيل الله تعالى ، وقد كان رضي الله عنه من المكثرين من صلاة النفل ، وممن تعمر بهم مجالس العلم والذكر ، أما الجهاد فكان هو القائد الأعلى للجيوش الإسلامية في بلاد العالم ، وكان الجهاد شغله الشاغل الذي أهمه وغلب على تفكيره، أما في داخل المجتمع الإسلامي فكان إمام المصلحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وهكذا تكون الأهداف السامية ، فكيف بمن يرغبون في البقاء في الحياة الدنيا من أجل أموال يثمرونها ، أو قصور يعمرونها ، أو شهوات يغذونها ؟! أولئك هم الخاسرون الذين قصرت أنظارهم، وتدنت أهدافهم ، ففضلوا الأدنى على الأعلى والفاني على الباقي.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قدم على عمر رضي الله عنه مسك وعنبر من البحرين فقال عمر : والله لوددت أني وجدت امرأة حسنة الوزن تزنُ لي هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين ، فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل : أنا جيدة الوزن فهلم أزِنْ لك ، قال: لا ، قالت : لم ؟ قال: - إني أخشى أن تأخذيه فتجعليه هكذا وأدخل أصابعه في صدغيه – وتمسحي به عنقك، فأصيب فضلا على المسلمين [1] .

فهذا مثل من ورع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه واحتياطه البالغ لأمر دينه ، فقد أبى على امرأته أن تتولى قسمة ذلك الطيب حتى لاتمسح عنقها منه فيكون قد أصاب شيئًا من مال المسلمين، وهذه الدقة المتناهية في ملاحظة الاحتمالات التي قد توقع في المحرمات أو الشبهات نور يهبه الله تعالى لأوليائه السابقين إلى الخيرات ، وفرقان يفرقون به بين الحلال والحلام والحق والباطل، بينما تفوت هذه الملاحظات على الذين لم يشغلوا تفكيرهم بحماية أنفسهم من المخالفات.

---

[1]) الزهد /١١٩ .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي عثمان النهدي قال: لما قدم عتبة [(1)] أذربيجان أُتي بالخبيص فأمر بسفطين عظيمين [(2)] فصنِعا له من الخبيص ، ثم حمل على بعير فسرح بهما إلى عمر رضي الله عنه ، فلما قدم على عمر ذاقه فوجده شيئًا حلوا ، فقال: كل المسلمين يشبع من هذا في رحله ؟ قال: لا ، قال: فلا حاجة لنا فيه فأطَبقهما وردهما عليه ، ثم كتب إليه: أما بعد فليس من كد أبيك ولا من كد أمك فأشبع المسلمين مما تشبع منه في رحلك [(3)] .

فهذه نظرة جليلة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في التأكيد على مبدإ المساواة بين المسلمين، فالمطلوب في حياة المسلمين هو الزهد والتخشن في المعيشة الذي أوصى به عمر عتبة بن فرقد، ولكن لو فُرِض أن الخير عم المسلمين فأصبحوا كلهم يحصلون على الأطعمة الشهية فإن تناولها في بعض الأحيان لاينافي حياة الزهد ، ولكن حينما تكون هذه الأطعمة مقصورة على الخاصة فإن ذلك لايجيز للوالي أن يصرف مال المسلمين لإطعام الخاصة منها، ولذلك قال عمر لعتبة حينما كتب إليه " فليس من كد أبيك ولا من كد أمك" .

وكذلك ماأخرجه الإمام أحمد من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : أقبلْت فإذا الناس بين أيديهم القصاع ، فدعاني عمر فأتيته ، فدعا بخبز غليظ وزيت ، قال: قلت له: أمنعتني أن آكل من الخبز واللحم ودعوتني على هذا ؟ قال: أنا دعوتك على طعامي فأما هذا فطعام المسلمين [(4)] .

فهذا مثل من زهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، فإنه لم يسو نفسه بعامة المسلمين في الطعام فضلا عن أن يزيد عليهم ، وقد كان مقبولا منه أن يأكل من طعام عامة المسلمين، ولكنه لتقشفه وزهده يختار لنفسه طعاما أقل ثمنا من ذلك .

وأخرج الإمام أحمد أيضا من حديث مصعب بن سعد قال : قالت حفصة بنت عمر : ياأمير المؤمنين لو لبست ثوبا هو ألين من ثوبك وأكلت طعاما هو أطيب من طعامك

---

١) هو عتبة بن فرقد .

٢) السفَط وعاء كالقفه والخبيص نوع من الحلوى .

٣) الزهد /١٢١ . وأخرج نحوه الإمام مسلم – صحيح مسلم ، رقم ٢٠٦٩ /١٢ كتاب اللباس .

٤) الزهد /١٢١ .

فقد وسع الله عز وجل من الرزق وأكثر من الخير ، قال: إني سأخصمك إلى نفسك، أما تذكرين ماكان رسول الله ﷺ يلْقَى من شدة العيش ؟ فمازال يذكرها حتى أبكاها ، فقال لها: إنْ قلت لك ذاك إني والله لَئن استطعت لأشاركنهما بمثل عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرخي [1] .

فهذا بعد نظر من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، فهو يرى أنه كلما زاد في الزهد في الدنيا والتقشف في المعيشة فإنه حرِي بأن ينال مزيدا من العيش الرخي في الجنة ، فلهذا قال: "لئن استطعت لأشاركنهما بمثل عيشهما الشديد لعلـي أدرك معهمـا عيشـهما الرخي".

وهو يريد بذلك رسول الله ﷺ وأبا بكر الصديق رضي الله عنه .

ولقد كان شديد الالتزام بسنة رسول الله ﷺ ، وذلك حينما ذكر ابنته أم المـؤمنين حفصة رضي الله عنها بمعيشة رسول الله ﷺ ، وكان ذلك من أسباب عصمته من الـدنيا التي انفتحت في عهده بشكل لم يسبق له مثيل في حياة العرب .

*   *   *

---

[1]) الزهد /١٢٥ .

مواقف في الورع والعفة والزهد – (٥)

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه

(٣)

من أمثلة ماكان يتصف به عمر رضي الله عنه من خشية الله تعالى ما أخرجه الإمام البخاري من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال : لما طُعن عمر جعل يألم ، فقال له ابن عباس- وكأنه يجزعه - : يا أمير المؤمنين ولئن كان ذاك لقد صحبت رسـول الله ﷺ فأحسنت صحبته ، ثم فارقته وهو عنك راض ، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته ، ثم فارقته وهو عنك راض ، ثم صحبت صحبتهم ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنـك راضون ، قال : أما ماذكرت من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه فإن ذلك من من الله تعالى من به علي ، وأما ماذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه فإن ذلك من من الله جل ذكـره من به علي ، وأما ماترى من جزعي فهو من أجلك وأجل أصـحابك ، والله لـو أن لي طلاع الأرض ذهبا لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه [1] .

لقد كان عمر رضي الله عنه يخاف هذا الخوف العظيم من عذاب الله تعالى مـع أن النبي ﷺ شهد له بالجنة ، ومع ماكان يبذل من جهد كبير في إقامة حكـم الله والعـدل والزهد والجهاد وغير ذلك من الأعمال الصالحة ، وإن في هذا لدرسا بليغا للمسلمين عامة في تذكر عذاب الله الشديد وأهوال يوم القيامة .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام ابن جرير الطبري من خبر سالم بن عبد الله بن عمـر رحمه الله ورضي عن أبيه وجده قال : لما ولي عمر قعد على رزق أبي بكر الذي كـانوا فرضوا له ، فكان بذلك فاشتدت حاجته ، فاجتمع نفر من المهاجرين ، منـهم عثمـان وعلي وطلحة والزبير ، رضي الله عنهم، فقال الزبير : لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها إياه في رزقه ، فقال علي : وددنا قبل ذلك فانطلقوا بنا ، فقال عثمان : إنـه عمـر ، فهلمـوا فلنستبرئ ماعنده من وراء ، نأتي حفصة فنسألها ونستكتمها، فدخلوا عليها وأمروهـا أن

---

(1) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، رقم ٣٦٩٢ (٤٣/٧) .

تخبر بالخبر عن نفر ، ولاتسمى له أحدا إلا أن يقبل، وخرجوا من عندها فلقيت عمـر في ذلك فعرفت الغضب في وجهه ، وقال: من هؤلاء ؟ قالت: لاسبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك ، قال: لو علمت من هم لَسؤت وجوههم ، أنت بيني وبينهم، أنشدك الله ما أفضلُ ما اقتنى رسول الله ﷺ في بيتك من الملبس ؟ قالت : ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفـد ويخطب فيهما للجمع ، قال: فأي الطعام ناله عندك أرفع ؟ قالت : خبزنا خبـزة شـعير فصببنا عليها وهي حارة أسفل عكة لنا فجعلناها هشة دسمة ، فأكل منها وتطعـم منـها استطابةً لها ، قال : فأي مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ ؟ قالت : كساء لنا ثخـين كنا نربعه في الصيف فنجعله تحتنا ، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه ، قال : ياحفصة فأبلغيهم عني أن رسول الله ﷺ قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالتزجية [أي الاكتفاء بالقليل] ، وأني قدرت ، فو الله لأضعن الفضول مواضعها ولأتبلغن بالتزجيـة ، وإنما مثلي ومثلُ صاحبي كثلاثة سلكوا طريقا ، فمضى الأول وقد تـزود زادا فبلـغ ، ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه ، ثم اتبعه الثالث ، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما ، وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما [1] .

فهذا دليل على زهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعفتـه حيـث اكتفى بالقليل من بيت المال مقابل تفرغه لأمور الأمة ، وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم أن تولى الخلافة وافق على ترك التجارة ولم يقبل بأكثر من درهمين خصصهما له أهل الحل والعقد في اليوم، فاستمر ذلك في عهد عمر ، ثم أدرك من جاء ذكـرهم في الخبر من أهل الحل والعقد بأن هذا المبلغ لايكفي بعد أن توسعت دولة الإسلام فأرادوا أن يزيدوا في ذلك المخصص ، فكان هذا الموقف الأخلاقي الرفيع الذي صدر من عمر رضي الله عنه .

وهذا الموقف يدل على ضخامة الحياة الآخرة في عين عمر وأنه كان يرتب سلوكه في الحياة الدنيا على اعتبار النظر إلى الرفعة في الآخرة ، فلذلك اكتفى بالقليل من المعيشة وفرض على نفسه وأسرته نظاما شديدا في التقشف والزهد ، وجعل مَثَله الأعلى في ذلك رسول الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه ، فلزم السير على منهاجهما في حياة الزهـد وإن

---

(1) تاريخ الطبري ٦١٦/٣ –٦١٧ .

كانت أنماط الحياة قد تغيرت بعض الشيء في عصره ، وهذا يدل على غزارة علمه وقوة إيمانه .

ولقد كانت قناعته بهذا المنهج الزهدي كبيرة ، حيث ثار غضبه من ذلك العرض الذي عرضته عليه ابنته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها .

ومن أمثلة ورعه ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر الربيع بن زياد الحارثي قال: كنت عند عمر رضي الله عنه فوضع يده على بطنه ، فقلت : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال: طعام غليظ أكلته أُذيت منه ، قلت: يا أمير المؤمنين إن أولى الناس بالمطعم اللين والملبس اللين لأنت، قال: فتناول عصية فقرع بها رأسي وقال : كنت أحسب فيك خيرا ياربيع بن زياد ، قلت: مالك يا أمير المؤمنين ؟ قال: والله ماأردت بها إلا مقاربتي ، أتدري مامثلي ومثلهم ؟ قال : مامثلك ومثلهم؟ قال: مثل قوم أرادوا سفرا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل وقالوا : أنفق عليك وعلينا أَقَلّه أن يستأثر عليهم ؟ قلت: لا ، قال : فكذلك [1] .

ففي هذا الخبر مثل من عفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وورعه ، حيث ساوى نفسه بأوساط الناس ولم يؤثر نفسه بشيء من أموال الأمة ، والمثل الذي ضربه عمر للوالي والرعية يدل على شدة تحريه في الأمور المالية ، فإن الأموال العامة مشاعة بين الأمة ، ومهمة الحاكم أن يتولى سياسة إنفاقها وتوزيعها بالعدالة ، كما يفعل ذلك من اختاره المسافرون لصرف نفقاتهم في السفر .

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر معدان ابن أبي طلحة اليعمري أنه قدم على عمر رضي الله عنه بقطائف وطعام ، فأمر به فقسم ، ثم قال : اللهم إنك تعلم أني لم أرزقهم ولن أستأثر عليهم إلا أن أضع يدي مع أيديهم في طعامهم ، وقد خفت أن تجعله نارا في بطن عمر.

قال معدان : ثم لم أبرح حتى رأيته اتخذ صحفة من خالص ماله فجعلها بينه وبين جفان العامة [2] .

---

(١) تاريخ المدينة المنورة ٦٩٧/ – ٦٩٨ .

(٢) تاريخ المدينة المنورة ٧٠٤/ .

فأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يرغب في أن يأكل مع عامة المسلمين لما في ذلـك من المصالح الاجتماعية ، ولكنه يتحرج من أن يأكل من طعام صنع من مال المسلمين العام ، فيأمر بإحضار طعام خاص له من خالص ماله ، وهذا مثال رفيع في العفة ، إذ أن الأكل من مال المسلمين العام معهم ليس فيه شبهة تحريم لأنه منهم ولكنه قد أعف نفسـه مـن ذلك ابتغاء ماعند الله تعالى ، ولشدة خوفه من الله تعالى خشي أن يكـون ذلـك مـن الشبهات فحمى نفسه منه .

* * *

مواقف في **الورع والعفة والزهد – (٦)**

من مواقف أمير المؤمنين **عمر رضي** الله **عنه – (٤)**

من ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر عبد الرحمن بن نجيح قال: نزلت على عمر رضي الله عنه ، فكانت له ناقة يحلبها ، فانطلق غلامه ذات يوم فسقاه لبنا أنكره، فقال: ويحك من أين هذا اللبن لك ؟ قال : يا أمير المؤمنين إن الناقة انفلت عليها ولدها فشر ا، فحلبت لك ناقة من مال الله ، فقال: ويحك تسقيني نارا ، واستحل ذلـك اللبن من بعض الناس ، فقيل هو لك حلال يا أمير المؤمنين ولحمها [1] .

فهذا مثل من ورع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، حيث خشي من عـذاب الله جل وعلا لما شرب ذلك اللبن مع أنه لم يتعمد ذلك ، ولم تطمئن نفسه إلا بعد أن استحل ذلك من بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم الذين يمثلون المسلمين في ذلك الأمر ، وهذا الخبر وأمثاله يدل على أن ذكر الآخرة بما فيها من حساب ونعيم أو شقاء قد أخذ بمجامع قلب عمر وملأ عليه تفكيره، حتى أصبح ذلك موجها لسلوكه في هذه الحياة .

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خـبر قتـادة بـن دعامـة السدوسي قال: خرج عمر رضي الله عنه من المسجد ومعه الجارود العبدي ، فإذا امـرأة برزة [2] على ظهر الطريق، فسلم عليها عمر رضي الله عنه فردت عليـه السـلام – أو سلمت عليه فرد عليها السلام – فقالت: هيها ياعمر [3] عهدتك ياعمر وأنت تسـمى عميرا في سوق عكاظ تصارع الصبيان ، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر ، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين ، فاتق الله في الرعية ، واعلم أنه من خاف الوعيـد قـرب عليه البعيد ، ومن خاف الموت خشي الفوت ، فبكى عمر رضي الله عنه، فقال الجارود :

([1]) تاريخ المدينة المنورة ٧٠٢/ .

([2]) هي المرأة الكهلة التي تبرز للقوم يتحدثون معها .

([3]) أي تنبه وتفطن .

هيه [1] فقد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته !! فقال عمر رضي الله عنه : أما تعـرف هذه ؟ هذه خولة بنت حكيم امرأة عبادة بن الصامت التي سمع الله عز وجل قولها من فوق سماواته ، فعمر أحرى أن يسمع لها [2] .

ففي هذا الخبر موقفان :

أولا : أنه مثل من الجرأة التي اتصف ا الصحابة رضي الله عنهم رجالا ونسـاء في مخاطبة الولاة والتعبير عما في نفوسهم من إرادة الإصلاح ، وقد تربوا على هذه الجرأة في ظل الإسلام، حيث جاءت الأوامر فيه بلزوم التناصح بين الراعي والرعية كما جاء في قول رسول الله ﷺ " الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسـلمين وعامتهم " أخرجه الإمام مسلم من حديث تميم الداري رضي الله عنه [3] .

ثانيا : موقف لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الذي تمثل في الخشية من الله تعـالى والتواضع لأفراد رعيته ، وهذا دليل على قوة إيمانه وتعظيمه لله عز وجل وشدة استحضاره لمشاهد الحياة الآخرة ، ومن كان كذلك فإنه ينسى نفسه ودنياه ويتوجـه سـلوكه إلى محاولة بلوغ الهدف الإسلامي الأعلى ، وهو الظفر برضوان الله سبحانه ونعيم الجنة .

ومن ذلك ما أخرجه أيضا المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من حديث معيقب قـال: أرسل إلي عمر رضي الله عنه مع الظهيرة فإذا هو في بيت يطالب ابنه عاصما ، فقلـت: على رسلك يا أمير المؤمنين فإنك تأخذ أمرك بالهوينى ، وإذا بعاصم في زاوية ، فقـال – يعني أمير المؤمنين - : أتدري ماصنع هذا ؟ إنه انطلق إلى العراق فأخبرهم أنه ابـن أمـير المؤمنين فانتفقهم فأعطوه آنية وفضة ومتاعا وسيفا محلى ، فقال : مافعلت ، إنما قـدمت على أناس من قومي فأعطوني هذا، فقال: خذه يامعيقب فاجعله في بيت المال ، فجعلتـه فلما كان العشي حدث القوم شأنه ، وانطلق عاصم فطلب إلى أناس في السيف ، فقالوا :

([1]) أي تنبهي .

([2]) تاريخ المدينة المنورة ٧٧٣/ – ٧٧٤ ، وقد نزل في خولة بنت حكيم رضي الله عنها قول الله تعالى ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ [ا ادلة /١] وقوله "امرأة عبادة بن الصامت " وهم من الراوي عن قتادة وهو خليد بن دعيج ، والصواب أ ا امرأة أوس بن الصامت أخي عبادة، أفاد ذلك الحافظ أبو عمر ابن عبد البر – الاستيعاب ٢٨٤/٤ .

([3]) صحيح مسلم ، رقم ٥٥ ، الإيمان (ص٧٤) .

يا أمير المؤمنين ، السيف أماله فإنه ليس له سيف؟ قال: يامعيقب انزع حليته وأعطه النصل ، قال: فما أصنع به ؟ قال : ماشئت ، فأخذ النصل [1] .

فهذا مثل من التحري في المال الذي يكتسبه الإنسان عن طريق جاهه ومنصبه ، فحيث شعر أمير المؤمنين عمر بأن ابنه عاصما قد اكتسب هذا المال لكونه ابن أمير المؤمنين تحرج من إبقاء ذلك المال عنده لكونه اكتسبه بغير جهده الخاص فدخل ذلك في مجال الشبهات .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : "إذا استأذنت أحدكم امرأته أن تأتي المسجد فلايمنعها ، قال: وكانت امرأة عمر بن الخطاب رضي الله عنه تصلي في المسجد فقال لها : إنك لتعلمين ماأحب، فقالت: والله لا أنتهي حتى تنهاني ، قال: فطُعن عمر وإ ا لفي المسجد [2] .

وأخرجه عبد الرزاق الصنعاني وذكر أن المرأة هي عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل [3] .

ففي هذا الخبر مثل من تعظيم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لأمور الشريعة ، ووقوفه عند كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، حيث قدم تنفيذ ذلك على ماتحبه نفسه .

وفي هذا المعنى ما أخرجه محمد بن سعد من خبر زيد بن أسلم عن أبيه قال: جاء بلال يريد أن يستأذن على عمر فقلت : إنه نائم ، فقال : يا أسلم كيف تجدون عمر ؟ قال: خير الناس إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم ، فقال بلال : لو كنت عنده إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه .

وأخرج أيضا من خبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : مارأيت عمر غضب قط فذُكر الله عنده أو خوف أو قرأ عنده إنسان آية من القرآن إلا وقف عما يريد [4] .

([1]) تاريخ المدينة المنورة ٧٠٠/ – ٧٠١ .

([2]) مسند أحمد ٧/٢ .

([3]) مصنف عبد الرزاق ١٤٨/٣ ، رقم ٥١١١ .

([4]) طبقات ابن سعد ٣٠٩/٣ .

ذلك لأن غضبه لله تعالى ، وأمره كله له سبحانه فإذا ذُكر به وخوف منه أو تليت عليه آياته غلبت عليه خشيته جل وعلا ، فأمسك عما كان يريد الإقدام عليه من تأديب ونحوه .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب يوما – وخرجت معه حتى دخل حائطًا [1] فسمعته – يقـول – وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخٍ ، والله لتتقين الله بني الخطاب أو ليعذبنك [2] .

فهذا نوع من محاسبة النفس وتذكيرها بيوم الحساب حتى لاتغتر بالجاه الـدنيوي ، فإن الناس يوم القيامة يبعثون مجردين من أموالهم وجـاههم ، ولايـرافقهم إلا أعمـالهم الصالحة .

وأخرج ابن عساكر أيضا من خبر أبي مسلم الأزدي ، أنه صلى مـع عمـر بـن الخطاب رضي الله عنه أو حدثه من صلى مع عمر بن الخطاب المغرب ، فمسى ا – أو شغله بعض الأمر – حتى طلع نجمان ، فلما فرغ من صلاته تلك أعتق رقبتين [3] .

فهذا الخبر يبين لنا شدة تعظيم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه للصـلاة وعظـم خشيته من الله تعالى ، حيث كفر عن تأخير صلاة المغرب عن أول وقتها بعتق مملوكين .

* * *

([1]) أي بستانا .

([2]) تاريخ دمشق ٣١٠/٤٤ .

([3]) تاريخ دمشق ٣١١/٤٤ .

مواقف في الورع والعفة والزهد ـ

(٧)

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه

(٥)

من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث مسروق بن الأجدع قال: دخل عبد الرحمن- يعني ابن عوف رضي الله عنه – على أم سلمة رضي الله عنها فقالت : سمعت النبي ﷺ يقول : إن من أصحابي لمن لايراني بعد أن أموت أبدا ، قال: فخرج عبد الرحمن من عندها مذعورا حتى دخل على عمر رضي الله عنه فقال : اسمع ماتقول أمك ، فقام عمر حتى أتاها فدخل عليها فسألها، ثم قال: أنشدك بالله أمنهم أنا ؟ فقالت : لا ولن أبرئ بعدك أحدا [1] .

فهذا مثال على ماكان يتحلى به الصحابة رضي الله عنهم من الخشية لله تعالى ، فهذان الصحابيان الجليلان كلاهما ممن بشرهم النبي ﷺ بالجنة ، ومع ذلك فزعا لما سمعا هذا الحديث، ولم يكتف أمير المؤمنين عمر بذلك ، بل ناشد أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها بأن تخبره إذا كان ممن ينطبق عليه هذا الوعيد ، وهذا يدل على قوة الدين وعظمة الله تعالى في قلوب الصحابة رضي الله عنهم .

وأخرج الحافظ ابن عساكر من خبر مزيدة بن قعنب الرهاوي قال: كنا عند عمر بن الخطاب- رضي الله عنه – إذ جاءه قوم فقالوا : إن لنا إماما يصلي بنا العصر فإذا صلى صلاته تغنى بأبيات ، فقال عمر : قوموا بنا إليه، فاستخرجه عمر من منزله فقال: إنه بلغني أنك تقول أبياتا إذا قضيت صلاتك فأنشدنيها ، فإن كانت حسنة قلتها معك ، وإن كانت قبيحة نهيتك عنها، فقال الرجل :

وفؤادي كلما نبهته ... عاد في اللذات يبغي تعبي
لا أراه الدهر إلا لاهيا ... في تماديه فقد برح بي
ياقرين السوء ماهذا الصبا ... فني العمر كذا باللعب
وشباب بان مني فمضى ... قبل أن أقضي منه أربي

---

(1) مسند أحمد ٣١٢/٦ .

ما أرجـي بعده إلا الفنا ضيق الشيب علي مطلبي

نفس لاكنت ولاكان الهوى اتقي المولى وخافي وارهبي

فقال عمر : نعم ، نفس لاكنت ولاكان الهوى ، وهو يبكي ويقول : اتقي المـولى وخافي وارهبي ، ثم قال عمر : من كان منكم مغنيا فليغن هكذا [1] .

فهذا مثل من رقة قلب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وشدة خشيته من الله جـل وعلا، حيث بكى لما سمع هذه الأبيات الوعظية .

وفي قوله " فإن كانت حسنة قلتها معك " دلالة على تواضعه وحسـن أسـلوبه في دراسة القضايا ، واحترامه آراء الآخرين .

وفي هذا الخبر دلالة على إقرار الصحابة رضـي الله عنـهم للأناشـيد الإسـلامية واستحسا م لما كان منها يشتمل على الوعظ والتذكير بالآخرة ، مع أن ذلك الإمام كان يتغنى بتلك الأبيات الشعرية في المسجد وبعد صلاة العصر ، فجواز ذلك خارج المسـجد من باب أولى .

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة النميري من خبر عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : أنا آخركم عهدا بعمر رضي الله عنه ، دخلت عليه ورأسه في حجـر ابنه عبد الله بن عمر، فقال له : ضع خدي بالأرض ، فقال : هل حجـري والأرض إلا سواء ؟ قال: ضع خدي بالأرض لا أم لك – في الثانية والثالثة – ثم شبك رجليه فسمعته يقول : ويل لي وويل لأمي إن لم يغفر الله لي ، حتى فاضت نفسه [2] .

فهذا مثل مما كان يتصف به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من خشية الله تعـالى ، حتى كان آخر كلامه الدعاء على نفسه بالويل إن لم يغفر الله جل وعلا له ، مع أنه أحـد العشرة المبشرين بالجنة، ولكن من كان بالله أعرف كان من الله أخوف ، وإصراره على أن يضع ابنه خده على الأرض من باب إذلال النفس في سبيل تعظيم الله عز وجل ، ليكـون ذلك أقرب لاستجابة دعائه، وهذه صورة تبين لنا قوة حضور قلبه مع الله جل وعلا .

---

(1) تاريخ دمشق ٣١٢/٤٤ .

(2) تاريخ المدينة المنورة ص ٩١٩ .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر الأحنف بن قيس التميمي قـال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : لايحل لعمر من مال الله إلا حلتين : حلة للشـتاء وحلـة للصيف وماحج به واعتمر عليه من الظهر [١] ، وقوت أهلي كرجل من قـريش لـيس بأغناهم ولا بأفقرهم ، ثم أنا رجل من المسلمين [٢] .

وهكذا كانت مخصصات أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من بيت مـال المسـلمين مايكفي للقوت الضروري والكسوة الضرورية كأحد أوساط الناس ، ومازاد عن ذلك فإن عمر يتورع عنه، ولو أن رجلا استأجر رجلا على أن يعمل له بطعامه وكسوته لم يقبـل بذلك إلا عند الضرورة القصوى ، ولكن عمر فرض على نفسه ذلك تورعا منه .

وذكر الحافظ ابن حجر أن الكرابيسي أخرجه بسند صحيح [٣] .

ومن أمثلة خشيته من الله تعالى ما أخرجه الخطيب البغدادي من خبر قسامة بن زهير قال: وقف أعرابي على عمر بن الخطاب فقال :

ياعمر الخير جزيت الجنة   جـهز بنـياتي وأمهنه

أقسـم بالله لتفعلـنه

قال : فإن لم أفعل ماذا يكون يا أعرابي ؟ قال :

أقسـم أني سوف أمضينه

قال : فإن مضيت ماذا يكون يا أعرابي ؟ قال :

والله عـن حالي لتسألنه   ثم تكون المسألات ثمه

والواقف المسؤول بينهنه   إمـا إلى نار وإما جنه

قال : فبكى عمر حتى اخضلت لحيته بدموعه ، ثم قال : ياغلام أعطه قميصي هـذا لذلك اليوم لا لشعره ، والله ما أملك قميصا غيره [٤] .

---

(١) أي الإبل .

(٢) تاريخ دمشق ٢٧٠/ .

(٣) فتح الباري ١٦١/١٣ .

(٤) تاريخ بغداد ٣١٢/٤ .

وهكذا بكى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بكاء شديدا تأثرا بشعر ذلك الأعـرابي الذي ذكره بموقف الحساب يوم القيامة ، مع أنه لايذكر أنه ظلم أحدا من الناس ، ولكنه لعظم خشيته وشدة خوفه من الله تعالى تنهمر دموعه أمام كل من يذكره بيوم القيامة .

ومن أمثلة ورعه رضي الله عنه ما أخرجه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري من خبر إياس بن سلمة عن أبيه [1] قال : مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السوق ومعه الدرة فخفقني ا خفقة فأصاب طرف ثوبي فقال أمط عن الطريق ، فلما كان في العام المقبـل لقيني فقال : ياسلمة تريد الحج؟ فقلت : نعم ، فأخذ بيدي فانطلق بي إلى منـزله فأعطاني ستمائة درهم وقال : استعن ا على حجك واعلم أ ا بالخفقة التي خفقتك ، قلت : يـا أمير المؤمنين ماذكر ا ، قال: وأنا مانسيتها [2] .

فهذا مثل من ورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث شعر بأنه قـد ضرب ذلك الرجل وهو غير مستحق للضرب ، فعوضه بذلك المال إبراء لذمتـه ، وهـو بذلك يقتدي برسول الله ﷺ كما ورد الخبر عنه بذلك في يوم حنين وغيره .

* * *

---

(1) أبوه هو سلمة بن عمرو بن الأكوع السلمي رضي الله عنه .

(2) تاريخ الطبري ٢٢٤/٤ .

مواقف في الورع والعفة والزهد –

(٨)

- من مواقف أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه -

لقد اشتهر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه بأنه من أهل الغنى والثروة ، ولكن مع هذه الشهرة فإنه قد رويت عنه أخبار تدل على أنه كان من الزاهدين في الدنيا.

فمن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث حميد بن نعيم : أن عمر وعثمان رضي الله عنهما دعيا إلى طعام ، فلما خرجا قال عثمان لعمر : قد شهدنا طعاما لوددنا أنـا لم نشهده ، قال: لم قال : إني أخاف أن يكون صنِع مباهاة [١] .

فهذا فقه من عثمان بن عفان رضي الله عنه بمجالات السخاء الإسلامي ، فالسخاء في الإسلام لايكون بالتفاخر بالكرم والتباهي بنوع الطعام أو كثرته ، وإنما ببذل المال من غير إسراف ولاخيلاء مع شكر المنعم جل وعلا والتواضع للناس ، وهذه النظرة من عثمان تعد من التزهيد بالجاه الدنيوي ، وهذا يدل على أنه كان من الزاهدين في ذلك .

ومن زهد عثمان رضي الله عنه وتواضعه ما أخرجه الإمام أحمد من حديث ميمون بن مهران قال : أخبرني الهمداني أنه رأى عثمان بن عفان رحمة الله عليه على بغلة وخلفه غلامه نائل وهو خليفة [٢] .

وكذلك ماأخرجه من حديث الهمداني قال : رأيت عثمان نائمـا في المسـجد في ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين [٣] .

كما أخرج من حديث شرحبيل بن مسلم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كـان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل إلى بيته فيأكل الخل والزيت [٤] .

---

(١) الزهد / ١٢٦ .

(٢) الزهد / ١٢٧ .

(٣) الزهد /١٢٧ .

(١) الزهد / ١٢٩ .
(٢) يعني الطين اليابس .
(٣) يعني بالماء .
(٤) أي اتفقت معها على أجرة .

فهذه أمثلة جليلة من زهد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، وحينما يكون الزاهد متوسط الحال في المعيشة فإن زهده لايلفت النظر كثيرا ولايثير العجب ، ولكن حينما يكون غنيا فإن زهده يكون مدهشا للمتأملين وعبرة للمعتبرين ، ذلك لأن كثرة المال تغري بالانصراف نحو الملذات والتوسع في النفقات ، فلابد ليكون الغني زاهدا من قوة بالغة تصرفه عن ذلك وتضخم في عينه النظر للآخرة وتقلل في عينه النظر إلى الدنيا ، وهكذا كان عثمان رضي الله عنه الذي كان من أعظم الأثرياء في الإسلام قد غلبت قوة إيمانه شهوته وهواه فكان من أعظم الزاهدين ، وضرب من نفسه مثلا لجميع الأغنياء بإمكان الجمع بين الغنى والزهد في الدنيا .

من أخبار علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

يعد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه من أئمة الزاهدين مع شدة انفتاح الدنيا في عهده ، ومن أخباره في الزهد مارواه مجاهد بن جبر رحمه الله قال : قال علي رضي الله عنه : جعت مرة بالمدينة جوعا شديدا فخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدرا [(١)] فظننتها تريد بله [(٢)] فأتيتها فقاطعتها [(٣)] كل ذَنوب [(٤)] على تمرة ، فعددت ستة عشر ذنوبا حتى مجلت يدي [(٥)] ثم أتيت الماء فأصبت منه ، ثم أتيتها فقلت بِكفي "هكذا" بين يديها [(٦)] فعدت لي ست عشرة تمرة ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فأكل معي منها [(٧)] .

في هذا الخبر بيان لشدة الحال التي مر ا الصحابة رضي الله عنهم في المدينة حيث ترك المهاجرون أموالهم بمكة ، ولم تكن أموال الأنصار – على الرغم مما اتصفوا به من

---

(٥) يعني كل دلو .

(٦) يعني تورمت من العمل .

(٧) يعني بسطهما وضمهما .

(٨) صفة الصفوة ٣٢٠/١ .

الإيثار – لتتسع لتغطية احتياج المهاجرين في كل الأحوال ، ولكنهم صبروا علـى تلـك الحال حتى فرج الله تعالى شدتهم ، وكان بإمكانهم لو أرادوا الدنيا أن يبقوا في مكة وغيرها من البلاد التي هاجروا منها بدينهم، وسيكونون – والحال تلك – أيسر حالا وأهنأ بـالا في عرف عامة الناس ، ولكن ماحملوه من النور الإلهي يجعل السعادة كـل السـعادة في صحبة النبي ﷺ ، والتضحية بكل مالديهم من طاقة في سبيل الله تعالى ، وإن ألجأهم ذلك إلى أقسى الظروف المعيشية .. فلله درهم ما أسمى فكرهم، وأرفـع ذكـرهم ، وأقـوى صبرهم !!

وعبرة أخرى نأخذها من هذا الخبر تتعلق ببيان صورة من السـلوك المشـروع في مواجهة الشدائد ، حيث خرج علي رضي الله عنه للعمل بيديه للكسب المشـروع ، ولم يجلس منتظرا ماتجود به أيدي المحسنين .

وصورة أخرى من قوة التحمل حيث قام بذلك العمل الشاق وهو يعاني من شـدة الجوع مايضعف قوته .

وصورة أخيرة من إيثار الأحبة والوفاء لهم ، فهو على مابه من شدة الجوع وبالرغم مما قام به من ذلك العمل الشاق قد احتفظ بأجرته من التمر حتى لقي النبي ﷺ فأكل معه.

وأخرج البلاذري من خبر الحارث قال : كنت عند علي فأتته امرأتان فقالتا : يـا أمير المؤمنين [إننا] فقيرتان مسكينتان . فقال : قد وجب حقّكما علينا وعلى كـلّ ذي سعة من المسلمين إن كنتما صادقتين ، ثم أمر رجلاً فقال : انطلق بهما إلى سوقنا فاشـتر لكل واحدة منهما كرا من طعام [1] وثلاثة أثواب – فذكر رداءً أو خمارا وإزارا – وأعط كل واحدة منهما من عطائي مائة درهم ، فلما ولّتا سفرت إحداهما وقالت: يـا أمـير المؤمنين فَضلني بما فضلك الله به وشرفك . قال: وبماذا فضلني الله وشرفني ؟

قالت : برسول الله ﷺ . قال : صدقت وما أنت ؟

---

(1) الكر : مكيال لأهل العراق فيه ستون قفيزا ، والقفيز ثمان مكاكيك ، والمكوك صاع ونصف الصاع .

قالت : [أنا] امرأة من العرب وهذه من الموالي، قال: فتناول شيئًا مـن الأرض ثم قال: قد قرأت مابين اللوحين فما رأيت لولد إسماعيل على ولد إسحاق عليهما السـلام فضلاً ولاجناح بعوضة [1] .

ففي هذا الخبر أمثلة من أخلاق أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وذلك في الرحمة والتواضع والعدالة ، ومما يلفت النظر عدم تفضيله تلك المرأة العربية على الأخرى التي هي من الموالي ، وبيان أن الإسلام لايقر التفرقة في العطاء بين العرب والموالي مادامو مسلمين ، وفي هذا لفتة مهمة في تعديل نظرة العرب للموالي ليفهموا بأن العزة والرفعة بالإسلام لا بالعروبة .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر الحافظ أبي نعيم الأصبهاني قـال: وسمعت سفيان يقول : إذا جاءك عن علي رضي الله عنه شيء أُثبت لك فخذ به ، مابنى علي لبنة ولاقصبة على قصبة ، ولقد كان يجاء بحبوبه في جراب من المدينة [2] .

في هذا الخبر يربط العالم الكبير سفيان بن سعيد الثوري بين الزهد في الدنيا والعلـم المتعلق بذلك، فأمير المؤمنين علي رضي الله عنه كان من أئمة الزهد قولا وعملا ، فأقواله في الزهد يكون لها الأثر الكبير لأنه كان طوال أيام خلافته زاهدا يعيش على ربع مال لـه في المدينة ولم يبن له قصرا يناسب مركزه الاجتماعي ، فلذلك كان بحق أزهد النـاس في عصره كما قال عنه عمر بن العزيز رحمه الله تعالى .

* * *

---

(1) أنساب الأشراف /٨٧٩ .

(٢) تاريخ دمشق /٤٨٢ .

مواقف في الورع والعفة والزهد –

(٩)

من مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه :

من أخبار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الزهد والورع ما أخرجـه أبو نعيم بإسناده عن علي بن ربيعة الوالبي أن علي بن أبي طالب جاءه ابن النباج فقال : يا أمير المؤمنين امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء ، فقال : الله أكبر ! فقام متوكئًا على ابن النباج حتى قام على بيت مال المسلمين فقال :

هـذا جناي خياره فـيه وكـل جان يـده إلى فيه

يا ابن النباج علي بأشياع الكوفة ، قال : فنودي في الناس فأعطى جميع مافي بيت مال المسلمين وهو يقول : ياصفراء ويابيضاء غُري غَيري ، هيا ، وهيا ، حتى مابقي منه دينار ولادرهم، ثم أمره بنضحه وصلى فيه ركعتين .

وفي رواية أخرى لأبي نعيم من خبر مجمع التيمي قال : كان علي يكنس بيت المـال ويصلي فيه ويتخذه مسجدا رجاء أن يشهد له يوم القيامة [1] .

ففي هذا مثل بليغ في الترفع عن متاع الدنيا الزائل ، فبيت المال قد امتلأ من الـذهب والفضة، ولاينظر إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه نظرة إعجاب وغرور ، بل كـان جوابه حينما أبلغه المسؤول المالي عن ذلك أن قال : الله أكبر ! فإذا كان بعـض النـاس يكْبِرون الدنيا ويعظمو ا فالله تعالى أكبر منها ومن كل شيء ، ومادام المسلم يشعر حقا بأن الله أكبر فلماذا يجعل قلبه مستسلما لما هو أصغر !!

إنه فقه عظيم من علي رضي الله عنه حينما تذكر هوان الدنيا وحقار ـا فكبـر الله تعالى، ولسان حاله يؤنب من انخدع بمتاع الدنيا الزائل ونسي أن الله جل وعلا أكبر مـن كل شيء .

وإنه لميزان دقيق يحسه المؤمن الذي نور الله سبحانه بصيرته ، فكلما كـان الله تعـالى أعظم وأكبر من كل شيء في قلبه كانت الدنيا ومافيها أهون شيء عليه ، وأصبح يسخر

---

(1) حلية الأولياء ١/٨٠ – ٨١ ، تاريخ الإسلام للذهبي / الخلفاء الراشدين /٦٤٣ .

المال الحلال في طاعة الله جل وعلا ، وكلما عظمت الدنيا في قلبه كان ذلك على حساب نقص تعظيمه لله تعالى .

ونجد عليا رضي الله عنه يحلق في آفاق العظمة وهو يخاطب الدنيا بقوله : ياصفراء يابيضاء غُري غيري .. مما يدل على الوجدان الحي والحس المرهف الذي يصور الدنيا كخصم يخاتل ويراوغ خصمه .. وهو بهذا يعلن انتصاره على جموح النفس وجموح العواطف ، ويحكم عقله الذي يعطي الدنيا حجمها المناسب لزمنها المحدود في شقائها ونعيمها ، ويعطي الآخرة حجمها المناسب لخلودها وعظمة نعيمها وهول جحيمها .

ونجده رضي الله عنه يصل إلى قمة المعالي حينما صلى في بيت المال ركعتين لتكونا شاهدتين له يوم القيامة بأنه قد عدل في حكمه واستقام في أمره .

ولعل في اتخاذ بيت المال مسجدا رمزا لعلو الآخرة على الدنيا ، وهو مكمل للسلوك العالي الذي مارسه في تصريف ذلك المال في وجوهه المشروعة .

ومن مواقف علي رضي الله عنه في الزهد والورع ماروواه هارون ابن عنترة عن أبيه قال : دخلت على علي بن أبي طالب بالخَورنق [1] وهو يرعد [2] تحت سمل قطيفة [3] فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال وأنت تصنع بنفسك ماتصنع ، فقال : والله ماارزؤكم من مالكم شيئًا وإنها لقطيفتي التي خرجت بها من منزلي – أو قال من المدينة [4] .

وهنا نتساءل فنقول : ما الذي حمل أمير المؤمنين عليا على أن يعيش عيشة الفقراء وأن يتحمل البرد القارس وهو قادر على أن يشتري أفخر ما يوجد في الأرض من الملابس وأكثرها دفئًا ؟!

ولماذا تورع عن أموال المسلمين مع أن له حقا فيها ؟

إنه مثال للزهد الحقيقي حيث يرغب عن متاع الدنيا مع القدرة التامة على تحصيله .

---

(1) موضع بالكوفة .

(2) يعني من شدة البرد .

(3) يعني قطيفة قديمة .

(4) حلية الأولياء ١/ ٨٢ ، صفة الصفوة ٣١٦/١ ، تاريخ الإسلام ، الخلفاء /٦٤٤ .

إنه تلميذ المدرسة النبوية التي تربى فيها على الزهد في متاع الدنيا الزائل ، والتنـافس على نعيم الآخرة الخالد ، فلقد عاش رسول الله ﷺ عيشة الفقراء وهو يستطيع أن يكون كأفضل الأغنياء .

ومن أخبار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الزهد والورع ما أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي مطر عمر بن عبد الله الجهني قال : رأيت عليا عليـه السـلام متزرا بإزار مرتديا برداء ومعه الدرة [1] كأنه اعرابي بدوي ، ثم ذكر دخوله إلى السـوق ومساومته أحد التجار في ثوب بثلاثة دراهم ، وأن التاجر عرفه ، قال: فلما عرفه لم يشتر منه شيئًا ، فأتى آخر فلما عرفه لم يشتر منه شيئًا ، فأتى غلاما حدثًا فاشترى منه قميصا بثلاثة دراهم ، ثم جاء أبو الغلام فأخبره، فأخذ أبوه درهمًا ثم جاء به فقال : هذا الدرهم يا أمير المؤمنين ، قال: ما شأن هذا الدرهم ؟ قال: كان ثمن القميص درهمـين ، فقـال: باعني رضاي وأخذ رضاه [2] .

فهذا مثل في الزهد من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فلقـد كـان مظهره في لباسه يوحي بأنه رجل أعرابي لخشونة ملابسه ، وحينما اشترى له ثوبا اختـار نوعا متواضعا رخيص الثمن مع أنه كان آنذاك أعلى مسؤول في العالم ، حيـث كـان خليفة المسلمين، وهذا يدل على تواضعه وزهده في الدنيا .

ومثل آخر في الورع والاحتياط للدين حينما امتنع من الشراء ممـن يعرفونـه حـتى لايراعوه في الثمن لمنصبه ، فهو لايريد أن يستثمر منصبه الكبير لمصالحه الخاصة ، وهـذا فهم دقيق الات الورع والتقوى ، فالخلافة عنده وعند أمثاله عمل صالح ، والخليفـة إذا صاحبه العدل كان أول السبعة الذين يظلهم الله تعالى في ظله يوم القيامة ، فهو لايريد أن يدنس هذا العمل الصالح بمصالح دنيوية فيتحول العمل إلى مجلبة للوزر بدلاً من الأجـر ، فكان ذا السلوك العالي قدوة حسنة لمن أتوا بعده .

---

(1) الدرة بكسر الدال وتشديدها العصا .

(2) الزهد / ١٣٠ .

ومن أخباره رضي الله عنه في الزهد ما أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد من حديث عمر بن قيس قال: قيل لعلي عليه السلام : لم ترقع قميصك ؟ قال: يخشع القلب ويقتدي به المؤمن [1] .

فهذا مثل من زهده رضي الله عنه وحرصه على تربية المسلمين على حياة الزهد والتقشف، فقد لاحظ في لبس الثوب المرقوع ملحظين : الأول أنه وسيلة إلى خشوع القلب وتواضع النفس والبعد عن أسباب العجب والكبرياء ، والثاني أنه يعد بذلك قدوة للمسلمين ، فإذا رآه الناس – وهو في أعلى منصب – يلبس الثوب المرقوع فإن نفوسهم تتطامن ويبتعدون عن التنافس في شراء الملابس الغالية الثمن ، ويتقوى بذلك الزاهدون الذين يتعرضون لملامة الناس على سلوكهم حياة الزهد .

وكذلك ما أخرجه الإمام أحمد من خبر عبد الله بن زرير الغافقي قال: دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه – قال حسن [2] : يوم الأضحى – فقرب إلينا خزيرة [3] ، فقلت: أصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط – يعني الوز – فإن الله عز وجل قد أكثر الخير ! فقال: يا ابن زرير إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : لايحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان ، قصعة يأكلها هو وأهله وقصعة يضعها بين يدي الناس [4] .

فهذا أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يضرب مثلا عاليا في الورع والزهد في متاع الدنيا الزائل من طعام وشراب ، فلقد كان بإمكانه أن يأخذ من بيت المال ماشاء من الأموال مما لايلفت النظر إليه ، حيث يؤمن له معيشة مساوية لأغنياء المسلمين ، ولكنه رضي بخشونة العيش إيثارا للآجلة على العاجلة ، واحتياطًا لأمر دينه ، وإبرازا للقدوة الصالحة ، لأنه إذا كان أعلى رجل في الدولة يعيش هذا المستوى من العيش فإن في ذلك عزاء للفقراء ليصبروا ويرضوا بقضاء الله تعالى وقدره ، ووعظًا للأغنياء ليشكروا الله تعالى فيخففوا من اندفاعهم نحو الترف والإسراف .

---

(1) الزهد /١٣١ ، وانظر تاريخ الإسلام /الخلفاء / ٦٤٧ .

(2) هو حسن بن موسى شيخ الإمام أحمد .

(3) الخزيرة لحم يقطع ويطبخ بالماء ثم يذر عليه الدقيق .

(4) مسند أحمد ٧٨/١ .

وإذا أخذ الأغنياء بالمنهج الوسط في المعيشة فإن فضول أموالهم ستعود في النهايـة إلى الفقراء لما ينتظرونه مقابل ذلك من الجزاء المضاعف في الآخرة ، وبالتالي يرتفـع الفقـراء درجات نحو الوسط ، وينـزل الأغنياء درجات نحو الوسط ، ليعـيش الجميـع حيـاة متقاربة في الأمور المعيشية من طعام ولباس ومركب وسكن .

وهذا هو المنهج الإسلامي الذي طبقه رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون مـن بعـده رضي الله عنهم.

* * *

مواقف في الورع والعفة والزهد ـ (١٠)

من أخبار أبي عبيدة ومعاذ رضي الله عنهما :

من أخبار الصحابة رضي الله عنهم في الزهد ماروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن عمر حين قدم الشام قال لأبي عبيدة رضي الله عنه : اذهب بنا إلى منـزلك ، قال: وماتصنع عندي؟ ماتريد إلا أن تعصر عينيك علي ، قال: فدخل فلم ير شيئًا ، قال: أين متاعك ؟ لا أرى إلا لبدا وصحفة وشنـًا [1] وأنت أمير ، أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة [2] فأخذ منها كسيرات ، فبكى عمر ، فقال له أبو عبيدة : قد قلت لك إنك ستعصر عينيك علي ، يا أمير المؤمنين يكفيك ما يبلُغك المقيل ، قال عمر : "غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة .

ذكره الإمام الذهبي وقال : وهذا والله هو الزهد الخالص لا زهد من كان فقيرا معدما [3] .

فهذا مثل بليغ في الزهد يقدمه أحد عظماء الإسلام أمام أحد عظمائه .

لقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حينما قَدم إلى الشام قد جعل من أهدافه المهمة أن يزور بيت أمير الشام أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه ليثْلج صدره برؤية مظهر من مظاهر الزهد النادرة ، ولكن أبا عبيدة كان يدرك ما ستؤول إليه حال عمر حينما يرى بيته فتلكأ قليلا في الذهاب به ، ولم يتمالك عمر نفسه حينما رأى ذلك البيت الذي كأنما هجر من دهر فجاشت عيناه بالدموع .

ويحدث مايدهش المتأمل حيث يقول أبو الزهد ومقنن مناهجه في عصره : "غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة " .

هل حقا غيرت الدنيا عمر ؟!

إنه الحاكم العظيم الذي ساس دولته على الزهد وكان قدوة عليا للزاهدين !

ولكنه التواضع الكبير من الرجل الكبير !

---

(1) **اللبد السرج والشن القربة القديمة .**

(2) **يعني السلة .**

(3) **سير أعلام النبلاء ١٧/١ .**

فما أعظم هذا الحوار بين هذين الرجلين العظيمين ! وما أعظم ماقدماه لأمة الإسلام من تضحية وفداء !!

ومن ذلك ماذكره ابن الجوزي عن مالك الداري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ أربعمائة دينار فجعلها في صرة فقال للغلام : اذهب ا إلى أبي عبيدة بن الجراح . ثم تله ساعة في البيت حتى تنظر مايصنع .

فذهب الغلام قال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك ، قال: وصله الله ورحمه ، ثم قال : تعالي ياجارية ، اذهبي ذه السبعة إلى فلان ، و ذه الخمسة إلى فلان و ذه الخمسة إلى فلان ، حتى أنفذها .

فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل ، فقال: اذهب ا إلى معاذ بن جبل وتله في البيت ساعة حتى تنظر مايصنع ، فذهب ا إليه قال : يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك ، فقال رحمه الله ووصله ، تعالي ياجارية ، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، اذهبي إلى بيت فلان بكذا ، فاطلعت امرأته فقالت : ونحن والله مساكين فأعطنا ولم يبق في الخرقة إلا ديناران قدحا ما إليها ، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره بذلك ، فقال: إ م إخوة بعضهم من بعض [1] .

ومن هذه الأخبار تبين لنا ماكان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة ، ولاشك أن من وقع في يده مال هو بحاجته ففرقه من ساعته .. لاشك أنه قد تجرد قلبه من الميل إلى الدنيا ، ولايكون ذلك إلا بدافع قوي يهيمن على النفس فيصرف اتجاهها إلى مايخالف هواها ، هذا الدافع هو ماذكره الله تعالى بقوله في مدح الصحابة رضي الله عنهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح :٢٩] ومايزال عباد الله المخلصون يقاومون هوى نفوسهم حتى يكون هواهم خالصا فيما يحبه الله تعالى ، ولذلك فإ م يشتاقون إلى لقائه جل وعلا، ولايكرهون الموت لأ م قد عاشوا لما بعد الموت ، ولم تمثل الحياة الدنيا في شعورهم إلا كرحلة سفر ، قد تم فيها الإعداد لما بعدها من الإقامة .

---

(1) **صفة الصفوة ٤٩١/١ .**

وعلى ضد ذلك الذين ذكرهم النبي ﷺ في آخر الزمان بقوله : "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأَكَلَة إلى قصعتها ، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غُثاء كغثاء السيل ، ولينـزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفَن الله في قلوبكم الوهن ، فقال قائل : يارسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت .

أخرجه الإمامان أبو داود وأحمد [1] .

من أخبار سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :

أخرج الحافظ ابن كثير في ترجمة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : وفي رواية محمد بن عائذ الدمشقي عن الهيثم بن حميد عن مطعم عن المقدام وغيره أن سعدا قال : يارسول الله ادع الله أن يجيب دعوتي ، فقال : إنه لايستجيب الله دعوة عبد حتى يطيب مطعمه ، فقال : يارسول الله ادع الله أن يطيب مطعمي ، فدعا له ، قالوا : فكان سعد يتورع من السنبلة يجدها في زرعه فيردها من حيث أُخذت [2] .

ففي هذا الخبر بيان لاهتمام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالورع واستقامته على ذلك، وكونه يهتم بسنبلة وقعت في أرضه دليل على قوة ورعه ، فإن كثيرا من الناس لايلتفتون لمثل هذا، وإذا كان قد تورع عن هذا الشيء الحقير فإن تورعه عن الأمور الكبيرة الواضحة في الحرام والشبهات من باب أولى ، وهذا الحديث صريح في أن أهم أسباب إجابة الدعاء الورع عن الحرام والشبهات ، وقد رويت أحاديث أخرى في هذا المعنى عن رسول الله ﷺ ، ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : أيها الناس إن الله طيب لايقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [المؤمنون :51] ، وقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ [البقرة : ١٧٢] قال : ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد

---

(1) سنن أبي داود ، رقم ٤٢٩٧ ، الملاحم ٤/٤٨٣ ، مسند أحمد ٢/٣٥٩ .

(2) البداية والنهاية ٨/٧٦ .

يديه إلى السماء : يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك !" [١] .

من أخبار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

من أخباره رضي الله عنه في باب الخشية من الله تعالى ما أخرجه أبو عبد الله الحاكم من خبر عمرو بن ميمون قال : كان عبد الله – يعني ابن مسعود رضي الله عنه – تأتي عليه السنة لايحدث عن رسول الله ﷺ ، فحدث ذات يوم عن رسول الله د بحديث فَعلَته كآبة ، وجعل العرق يتحادر على جبهته ويقول : نحو هذا أو قريبا من هذا .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي [٢] .

فهذا مثل من شدة الوجل والخشية من الله تعالى ، واهتمام بالغ من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بأداء ماسمع من النبي ﷺ من غير أن يغير منه حرفا ، وهذا النص يعد توثيقا لجميع مرويات ابن مسعود إذا صحت عنه ، وعلى شاكلته كان علماء الصحابة رضي الله عنهم ، لأ م يعلمون جميعا أن هذا الأمر أداءٌ لدين الله تعالى ، وأن تحمل ذلك العلم وأداءه مسؤولية عظيمة .

من أخبار أبي أمامة رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه الإمام الطبراني في معجمه الكبير من حديث أبي أمامه الباهلي رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى باهلة ، فأتيتهم وهم على الطعام ، فرحبوا بي وأكرموني، وقالوا: تعال فكل ، فقلت : إني جئتكم لأ اكم عن هذا الطعام [٣] ، وأنا رسول رسول الله ﷺ أتيتكم لتؤمنوا به ، فكذبوني وزبروني [٤] ، وأنا جائع ظمآن ، فنمت فأُتيت في منامي بشربة لبن فشربت ورويت وعظم بطني ، قال القوم : أتاكم رجل من أشرافكم وسراتكم فرددتموه ، إذهبوا إليه وأطعموه من الطعام والشراب مايشتهي ، فأتوني

---

(١) **صحيح مسلم ، رقم ١٠١٥ ، الزكاة (ص٧٠٣) .**

(٢) **المستدرك ٣/٣١٤ .**

(٣) **جاء في إحدى الروايات أنه كان طعامهم الدم ، وكانوا يستخرجونه من البهائم ويجعلونه في طعامهم، فلذلك لم يأكل أبو أمامة من طعامهم لأنه محرم .**

(٤) **أي انتهروه .**

بالطعام والشراب ، فقلت : لاحاجة لي في طعامكم وشرابكم ، فإن الله أطعمني وسقاني ، فانظروا إلى الحال التي أنا عليها ، فنظروا فأريتهم بطني ، فأسلموا عن آخرهم .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه الطبراني بإسنادين وإسناد الأولى حسن [1] .

وهكذا أظهر هذا الصحابي الجليل عزة الإسلام فلم يدار المشركين في اقتراف شيء مما ى الله تعالى عنه ، فكان أهلا لأن تجري على يديه كرامة الله جل وعلا حيث أطعمه وسقاه، ثم هدى على يديه قبيلته بأكملها ، وتلك من عاجل بشرى المؤمن في الحياة الدنيا ، مع ما ادخره الله تعالى له في الآخرة من الثواب العظيم .

وهذا مثل رائع في باب الورع والتقوى ، وبيان واضح لأثر ذلك في نجاح الداعية ، كما هو ظاهر في استجابة قوم أبي أمامة ، وقد كانوا كذبوه أولاً وزجروه ، ثم أكبروا فيه الامتناع عن الطعام والشراب تدينا مع شدة احتياجه إليه ، فلما رأوا ما من الله به عليه من تلك الكرامة العظيمة خضعوا للحق فأسلموا .

ومن ذلك ماروي عن مولاة لأبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قالت : كان أبو أمامة رجلا يحب الصدقة ويجمع لها من بين الدينار والدرهم والفلوس ، وما يأكل ، حتى البصلة ونحوها، ولايقف به سائل إلا أعطاه ما يأ له حتى يضع في يد أحدهم البصلة .

قالت : فأصبحنا ذات يوم وليس في بيته شيء من الطعام لذلك – يعني لذلك الغرض وهو الصدقة – ولا لنا ، وليس عنده إلا ثلاثة دنانير ، فوقف به سائل فأعطاه دينارا ثم وقف به سائل فأعطاه دينارا ، ثم وقف به سائل فأعطاه دينارا .

قالت : فغضبت وقلت : لم يبق لنا شيء ! فاستلقى على فراشه وأغلقت عليه باب البيت حتى أذن المؤذن للظهر ، فجئته فأيقظته فراح إلى مسجده صائما ، فرققت عليه فاستقرضت ما اشتريت به عشاء فهيأت سراجا وعشاء ، ووضعت مائدة ودنوت من فراشه لأمهده له ، فرفعت المرفقة – يعني المخدة – فإذا بذهب ، فقلت في نفسي ، ماصنع إلا ثقة بما جاء به ، قالت: فعدد ا فإذا ثلاثمائة دينار ، فتركتها على حالها حتى أنصرف على العشاء .

---

(1) **مجمع الزوائد ٣٨٧/٩ .**

قالت : فلما دخل ورأى ماهيأت له حمد الله تعالى وتبسم في وجهي ، وقال: هذا خير من غيره ، فجلس فتعشى ، فقلت : يغفر الله لك ، جئت بما جئت به ، ثم وضعته بموضع مضيعة ! فقال: وماذاك ؟ فقلت : ماجئت به من الدنانير ، ورفعت المرفقة عنها ففزع لما رأى تحتها، وقال: ويحك ماهذا ؟ فقلت : لا علم لي به إلا أني وجدته على ماترى ، قالت:فكثر فزعه رضي الله عنه.

ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة والذهبي في تاريخه ، وأشار إليه في سير أعلام النبلاء وقال: لأبي أمامة كرامة باهرة جزع هو منها [(١)] .

وإن مارأيناه في هذا الخبر شيء عجيب ، فَلأَنْ يتصدق المسلم بمازاد عن حاجته فهذا ظاهر، وله أمثلة كثيرة من عمل الصالحين ، لكن أن يتصدق بثمن قوته الضروري فإن هذا نادر المثال، وإنما يدل على إيمان قوي وثقة بالغة بما عند الله تعالى من الخير في الدنيا والآخرة ، فأما الجزاء الأخروي فأدلته ظاهرة معلومة ، وأما الجزاء الدنيوي ففي مثل قول رسول الله ﷺ "مامن يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينـزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا" [(٢)] وقد ضاعف الله تعالى لأبي أمامة الخلف بمائة ضعف ، حيث رزق بثلاثمائة دينار لايعرف مصدرها ، بدلا من الثلاثة التي تصدق بها .

والمشهد العجيب الثاني أنه فزع لما رأى تلك الدنانير ، وزاد فزعه يوم أن جهل مصدرها، في مقام يتوقع فيه الفرح والسرور ، وماذاك إلا أنه وأمثاله ينظرون إلى الدنيا نظرة وجل وفزع خوفًا من الوقوع في شيء من فتنتها على حسب عرف السابقين بالخيرات ، وإن كان ذلك يعد أمرا معتادا عند غيرهم ، أما شدة فزعه حينما جهل مصدرها فهو مبني على شدة خشيته من الله تعالى أن يكون ذلك استدراجا ، وأن يداخل نفسه شيء من الإعجاب بالعمل الصالح ، ولكن أنى يصدر ذلك ممن يحولون مشاهد السرور والفرح إلى مشاهد الخوف والفزع !

* * *

---

(١) صفة الصفوة ٧٣٤/١ ، تاريخ الإسلام ٣١٥/٣ ، سير أعلام النبلاء ٣٦٢/٣ .

(٢) صحيح البخاري ، رقم ١٤٤٢ ، الزكاة (٣٠٤/٣) ، صحيح مسلم ، الزكاة رقم ٥٧ .

- مواقف في الورع والعفة والزهد -

(١١)

من أخبار المقداد بن عمرو رضي الله عنه :

من الذين وردت عنهم الأخبار في الخشية والورع المقداد بن عمرو رضي الله عنه ، من ذلك ما أخرجه أبو عبد الله الحاكم من حديث المقداد بن عمرو رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ مبعثا ، فلما رجعت قال: كيف تجد نفسك ؟ قلت: مازالت حتى ظننت أن من معي خولي [1] ، وايم الله لا أعمل على رجلين بعدها ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي [2] .

فهذا مثال للورع والشدة في محاسبة النفس ، فحينما أحس المقداد رضي الله عنه بأن نفسه قد تعاظمت بعض الشيء من أثر احترام الناس وتقديرهم له نفر من تلك الولاية التي خاف على دينه منها وآلى على نفسه أن لايتولى عملا في حياته .

وإن في هذا الخبر درسا حيا للمسؤولين الذين يخدعون بمناصبهم فتتغير حالهم بعد توليهم المسؤولية ، ويداخلهم شيء من الغرور والكبرياء ، وربما تلا ذلك شيء من ظلم الناس وتأخير حقوقهم ، فليعلم هؤلاء أ م قد اختاروا الدنيا على الآخرة وآثروا حظ أنفسهم على ابتغاء رضوان الله تعالى ، ولئن خيل إليهم أ م قد كسبوا شيئا من الجاه الدنيوي فلقد خسروا كثيرا حينما لم يضعوا في حسا م العمل لما بعد الموت .

من أخبار خباب بن الأرت رضي الله عنه :

مما روي عن الصحابة رضي الله عنهم ماروي عن خباب بن الأرت رضي الله عنه وذلك فيما ذكره ابن الجوزي عن طارق بن شهاب قال: جاء خبابا نفَر من أصحاب محمد ﷺ فقالوا: أبشر يا أبا عبد الله إخوانك تقْدم عليهم غدا ، فبكى وقال : أما إنه ليس

---

(1) **أي خدم لي .**

(٢) المستدرك ٣٤٩/٣ – ٣٥٠ .

بي جزع ولكن ذكرتموني أقواما وسميتم لي إخوانا ، وإن أولئك مضوا بأجورهم كما هي ، وإني أخاف أن يكون ثواب ماتذكرون من تلك الأعمال ماأوتينا بعدهم [(١)] .

لقد فزع خباب رضي الله عنه وبكى من النعمة التي أوتيها مع أ ا مـن خـالص الحلال خشية أن يكون قد عجل له بعض ثواب عمله الصالح ، وفي هذا دلالة على شـدة خشيته من الله تعالى، وعظمة استحضاره للآخرة ، حيث يخشى أن ينتقص أجره بما تقدم من نعمة في الدنيا ، وقد جرى ذلك من صحابة آخرين رضي الله عنهم ، وهذا دليل على قوة إيما م وحرصهم الشديد على السلامة في الآخرة ورفعة الدرجات .

وإذا كان خباب قد فزع من تلك النعمة الحلال فكيف بمن يتقلبون في أنواعٍ مـن متاع الدنيا المكون من كسب حرام أو مال مشتبه ؟!

من أخبار عائشة رضي الله عنها :

من ذلك ما أخرجه الحاكم من حديث أبي عمرو ذكوان مولى عائشـة رضـي الله عنها: أن درجا [(٢)] قَدم إلى عمر من العراق وفيه جوهر ، فقال لأصحابه : تدرون ماثمنه ؟ قالوا : لا ، ولم يدروا كيف يقسمونه ، فقال : تأذنون أن أبعث به إلى عائشـة لحـب رسول الله ﷺ إياها ؟ فقالوا: نعم، فبعث به إليها فَفَتحته فقالت: ماذا فُـتح علـى ابـن الخطاب بعد رسول الله ﷺ اللهم لاتبقني لعطيته لقابل .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين إذا صح سماع ذكـوان أبي عمرو ، ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : قلت : فيه إرسال [(٣)] .

ففي هذا الخبر موقفان : الأول في تصرف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الحكيم، وذلك حينما ذهب فكره إلى ير من يحبه رسول الله ﷺ أكثر من غيره فتذكر عائشة رضي الله عنها، فاستأذن الصحابة رضي الله عنهم في إرسال ذلك الجوهر إليها ، وهذا موقـف آخر يذكر له حيث لم يستبد برأيه مع كونه في عمل خيري ، ومما يذكر له أيضا في هـذا

---

(١) **صفوة الصفوة ٤٢٧/١ .**

(٢) **هو وعاء الجوهر .**

(٣) **المستدرك ٨/٤ .**

التصرف أنه لم يراع في ذلك ابنته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها ولم يدارها في ذلك ، بل خلُص تفكيره لير من يحبها رسول الله ﷺ أكثر من غيرها .

والموقف الثاني : فيما أبدته عائشة رضي الله عنها من زهد في مظاهر الحياة الـدنيا، حيث فزعت من رؤية ذلك الجوهر النفيس وخشيت على نفسها الفتنة به بـدلا مـن أن تفرح به حتى دعت على نفسها بذلك الدعاء ، وهذا مثال على كمال الزهد وقوة الإيمان.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن أبي مليكة عن ذكوان مولى عائشة رضي الله عنها أنه استأذن لابن عباس رضي الله عنهما على عائشة وهي تمـوت، وعندها ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن ، فقال: هذا ابن عباس يستأذن عليك وهو من خير بنيك ، فقالت :دعني من ابن عباس ومن تزكيته ، فقال لها عبد الله بن عبد الرحمن : إنه قارئ لكتاب الله فقيه في دين الله فأذني له فليسلم عليك وليودعك ، قالت : فأذن له إن شئت ، قال: فأذن له فدخل ابن عباس ثم سلم وجلس وقال: أبشري يا أم المؤمنين فو الله مابينك وبين أن يذهب عنك كل أذًى ونصب – أو قال: وصب- وتلقـي الأحبـة محمدا ﷺ وحزبه – أو قال : أصحابه – إلا أن تفارق روحك جسدك ، فقالت: وأيضا ، فقال ابن عباس : كنت أحب أزواج رسول الله إليه ولم يكن يحب إلا طيبا ، وأنـزل الله عز وجل براءتك من فوق سبع سماوات، فليس في الأرض مسجد إلا وهو يتلى فيه آنـاء الليل وآناء النهار ، وسقطت قلادتك بالأبواء فاحتبس النبي ﷺ في المـنزل والناس معـه في ابتغائها – أو قال في طلبها – حتى أصبح القوم على غير ماء فأنزل الله عـز وجـل ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [النساء :٤٣] فكان في ذلك رخصة للناس عامة في سببك ، فو الله إنك لمباركة، فقالت : دعني يا ابن عباس من هذا فو الله لـوددت أني كنـت نسـيا منسيا[1] .

فهذا مثال من خشية الله تعالى ، وقوة استحضار الحياة الآخرة في القلـب ، فقـد تناست أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كل فضائلها التي ذكرها ابن عباس رضـي الله عنهما والتي لم يذكر، ولم يبرز في فكرها إلا الحساب وأهوال الآخرة ، وهذا دليل علـى قوة الإيمان ورسوخ اليقين .

---

(1) مسند أحمد ٣٤٩/١ .

ومن ذلك ما أخرجه أبو عبد الله البخاري رحمه الله من حديث عوف بن الحارث : أن عائشة رضي الله عنها حدثت أن عبد الله بن الزبير قال في بيع أو عطاء أعطته عائشة : والله لتنتهين عائشة أو لأحجرن عليها ، قالت : أهو قال هذا ؟ قالوا : نعم ، قالت : هو لله علي نذر أن لا أكلم ابن الزبير أبدا ، فاستشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجـرة ، فقالت : لا والله لا أشفع فيه أبدا ولا أتحنث إلى نذري ، فلما طال ذلك على ابن الـزبير كلم المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث – وهما من بـني زهـرة – وقال لهما : أنشدكما بالله لما أدخلتماني على عائشة فإ ا لايحل لها أن تنذر قطيعتي ، فأقبل به المسور بن مخرمة وعبد الرحمن مشتملين بأرديتهما حتى استأذنا على عائشـة فقـالا : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أندخل ؟ قالت: عائشة : ادخلوا ، قـالوا : كلنـا ، قالت : نعم ، ادخلوا كلكم – ولاتعلم أن معهما ابن الزبير- فلما دخلوا دخل ابن الزبير الحجاب فاعتنق عائشة ، وطفق يناشدها ويبكي ، وطفق المسور وعبد الرحمن يناشـدا ا إلا كلمته وقبلت منه ، ويقولان : إن النبي ﷺ قد ى عما قد علمت من الهجرة، فإنـه لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، فلما أكثروا على عائشـة مـن التـذكرة والتحريج طفقت تذكرهما وتبكي ، وتقول : إني نذرت والنذر شديد ، فلم يزالا ا حتى كلمت ابن الزبير، وأعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبة ، وكانت تذكر نذرها بعد ذلـك فتبكي حتى تبل دموعها خمارها" [(1)] .

وقوله " في بيع أو عطاء أعطته عائشة" قال الحافظ ابن حجر : في رواية الأوزاعـي :"في دارٍ لها باعتها ، فسخط عبد الله بن الزبير ببيع تلك الدار" قوله "لتنتهين عائشـة" زاد في رواية الأوزاعي" أما والله لتنتهين عائشة عن بيع رباعها "قال: وهذا مفسر لما أُ ـم في رواية غيره،وكذا ماتقدم في مناقب قريش من طريق عروة قال:"كانت عائشة لاتمسـك شيئا ، فما جاءها من رزق الله تصدقت به "وهذا لايخالف الذي هنا لأنه يحتمل أن تكون باعت الرباع لتتصدق بثمنها" [(2)] أ هـ .

([1]) **صحيح البخاري ، رقم ٦٠٦٣ ، كتاب الأدب (٤٩١/١٠) .**

([2]) **فتح الباري ٤٩٣/١٠ .**

ففي هذا الأثر بيانٌ لبعض أخلاق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فمـن ذلـك اتصافها بالكرم الفياض ، حيث كانت تتصدق بعطائها ، وتبيع من ملكها لتتصدق بثمن ذلك ، ولقد أثار كرمها البالغ ابن أختها عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما فقال ماقال : وكان ميلها الشديد إلى الكرم دافعا لها إلى النذر المذكور الذي أصبحت به محرجة بـين الوفاء بالنذر وصلة الرحم.

ومن ذلك اتصافها بالخوف الشديد من الله تعالى ، والورع الدقيق حيث تحرجـت من عدم الوفاء بنذرها ، ولما اضطرت إلى ذلك بدافع من تغليب جانب صلة الرحم وعدم الاستمرار في الهجر أعتقت أربعين مملوكا كفارة لنذرها ، ومع ذلك كانت كلما ذكرت ذلك النذر تبكي ، وهذا دليل على قوة الإيمان وعظمة الخشية من الله تعالى .

من أخبار زينب بنت جحش رضي الله عنها :

ومثل آخر من زهد أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أخرجه ابن سعد من حديث برزة بنت رافع قالت : لما خرج العطاء أرسل عمر إلى زينب بنـت جحـش بالذي لها، فلما أُدخلَ عليها قالت : غفر الله لعمر ، غيري من أخواتي كان أقوى علـى قسم هذا مني ، قالوا : هذا كله لك ، قالت : سبحان الله ! واستترت منه بثوب ، وقالت : صبوه واطرحوا عليه ثوبا ، ثم قالت لي : أدخلي يدك فاقبضي منه قبضة فاذهبي ـا إلى بني فلان وبني فلان ، من أهل رحمها وأيتامها ، حتى بقَيت بقية تحت الثوب ، فقالت لها برزة بنت رافع : غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا حـق ، فقالـت : فلكم ماتحت الثوب ، فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهما، ثم رفعـت يـدها إلى السـماء فقالت: اللهم لايدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا ، فماتت .

قال عبد الوهاب [١] في حديثه : فكانت أولَ أزواج النبي ﷺ لُحوقًا به [٢] .

فهذا موقف رفيع في الزهد والكرم من أم المؤمنين زينب بنت جحـش رضـي الله عنها، حيث فزعت من ذلك المال الذي كان عطاءَها السنوي ، وقد استترت من ذلـك المال بثوب وكأنما صورت لها النار متمثلةً بذلك المال ، ولم يقر لها قرار حتى فرقت ذلك

---

(١) يعني عبد الوهاب بن عطاء الذي روي عنه ابن سعد .

(٢) طبقات ابن سعد ١٠٩/٨ – ١١٠ .

المال على أقاربها ، وأخيرا دعت على نفسها بعدم البقاء خشية الافتتان بالــدنيا ، وهــذا دليل على كمال الزهد والخشية .

*　　　*　　　*

مواقف في الورع والعفة والزهد – (١٢)

من أخبار سلمان رضي الله عنه :

ومن أخبار زهد الصحابة رضي الله عنهم ما أخرجه الإمام الطبراني من حديث شقيق بن سلمة قال: دخلت أنا وصاحب لي إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فقال سلمان : لولا أن رسول الله ﷺ نهى عن التكلف لتكلفْت لكم ، ثم جاء بخبز وملح ، فقال صاحبي : لو كان في ملحنا صعتر ، فبعث سلمان بمطْهرته فرهنها ، ثم جاء بصعتر ، ولما أكلنا قال صاحبي : الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا ، فقال سلمان : لو قَنِعت بما رزقك لم تكن مطهرتي مرهونة .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله رجال الصحيح غير محمد ابن منصور الطوسي وهو ثقة [١] .

فهذا مثال في الزهد والقناعة يقدمه صاحب من أكابر أصحاب النبي ﷺ .

لقد كان بإمكان سلمان رضي الله عنه أن يملك الكثير من المال ، وأن يقدم لضيوفه الكثير من الطعام ، ولكنه كان يتصدق بعطائه ويأكل متقشفًا من عمل يده ، ويقدم لضيوفه ماتيسر له ليجعل من نفسه قدوة للتابعين في الزهد والقناعة .

ومع هذا الزهد البالغ فإنه لما حضره الموت كان يبكي من خشية الله تعالى كما روي عن ثابت البناني قال : لما مرض سلمان خرج سعد [٢] من الكوفة يعوده ، فقدم فوافقه وهو في الموت يبكي ، فسلم وجلس وقال : مايبكيك يا أخي ؟ ألا تذكر صحبة رسول الله ﷺ ؟ ألا تذكر المشاهد الصالحة ؟

قال : والله مايبكيني واحدة من ثنتين : ما أبكي حبا بالدنيا ولا كراهية للقاء الله ، قال سعد: فما يبكيك بعد ثمانين ؟ قال: يبكيني أن خليلي عهد إلي عهدا قال : " ليكُن

---

(١) مجمع الزوائد ١٧٩/٨ .

(٢) يعني سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب" وإنا قد خشينا أنا قد تعدينا [1] .

فهذا عجيب أن تبلغ الخشية عند سلمان رضي الله عنه إلى هذا الحد مع أنه الـذي ضرب الأمثلة الرائعة في الزهد والورع ، فهو الذي كان يسكن في بيت من الخوص وهو أمير المدائن!

إنه الإيمان القوي الذي يصنع العجائب ، حيث يصفو التفكير فيكون منطلقا نحـو الآخرة ومافيها من حساب وجزاء فيتصور صاحبه أنه قد قصر في عمل الآخرة مع أنه قد بلغ درجات عالية في الكمال .

لقد كانت أقوال الرسول ﷺ وتوجيهاته الحكيمة ماثلة أمام أعين الصحابة رضي الله عنهم طوال حيا م فكانت سدا منيعا يحول بينهم وبين التوغل في الدنيا .

لقد كانوا يسمعون منه ﷺ بوعي وإدراك وعزم أكيد على التنفيذ ، ثم يطبقون حالاً ماسمعوا عمليا، لايعتريهم الكسل ، ولايدب إلى حيا م طول الأمل ، ولاتزيدهم سـني العمر الطويلة إلا مضاعفةً في الخشية ومزيدا من العمل الصالح وترقيا في مدارج التقـوى والحذر من الفتن .

ومن أمثلة اتصافه باليقين المبني على قوة الخشية والرجاء ما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر بقَيرةَ امرأة سلمان الفارسي رضي الله عنه قالت : لما حضر سـلمان الموت دعاني وهو في علية لها أربعة أبواب ، فقال: افتحي هذه الأبواب يابقيرة فـإن لي اليوم زوارا لا أدري من أي هذه الأبواب يدخلون علي ، ثم دعا بمسك له ثم قال : أديفيه في تور [2] ، ففعلت، ثم قال : انضحيه حول فراشي ، ثم انزلي فامكثي فسوف تطلعـين فترينى على فراشي ، فاطلعت فإذا هو قد أُخذَ روحه فكأنه نائم على فراشه – أو نحـوا من هذا - [3] .

ففي هذا الخبر يخبر سلمان رضي الله عنه بقرب مجيء الملائكة عليهم السلام لقبض روحه، ويستقبل هذا الحدث المترقب بفرح واستبشار ، وهو مثل من عمق اليقين وبروز

([1]) سير أعلام النبلاء ٥٥٦/١ .

([2]) أديفيه أي اخلطيه ، والتور إناء يوضع فيه الماء .

([3]) حلية الأولياء ٢٠٨/١ ، وانظر سير أعلام النبلاء ٥٥٣/١ .

أحداث الآخرة في أذهان الصحابة رضي الله عنهم .

فكم من الناس يحضره ملائكة الموت لقبض روحه وهو ساه لاه في دنياه، يضـرب بفكره في طول الأرض وعرضها ، وكأنه آمن من ملك الموت ، أو كأنه يعـيش في دار خلود .. ألا وإن دار الخلود هي التي نسيها ولها عنها بمطالب دار فانية .

وإذا كان كثير من الناس على هذه الشاكلة فإن صحابة رسول الله ﷺ لم يكونـوا كذلك، بل كانوا ينظرون إلى الآخرة كجبلٍ عظيم شاهق يساق الناس إليه بما فيه مـن نعيم وجحيم ، وهم في مسيرهم قد طمحت أبصارهم لذلك الجبل متناسين مايمرون بـه في طريقهم من رياض تمتع أنظارهم ، غير مبالين بما يفاجؤون به من حجارة وأشـواك تدمي أقدامهم .

ونجد سلمان رضي الله عنه وهو ينتظر ذلك اليوم الذي سيزوره فيه ملائكة المـوت قد أعد شيئا من الطيب الفاخر الذي حرم منه نفسه ليقدمه لزائريه من رسـل الله جـل وعلا .. وهذا مظهر عالٍ من مظاهر اليقين ونفحة من شفافية الروح سمت حتى ظهرت على مطالب الجسد ، فأصبحت مطالب الجسد مسخرة لمطالب الروح .

من أخبار ثابت بن قيس رضي الله عنه :

ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآيـة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢] جلس ثابت بن قيس في بيته وقال : أنا من أهل النار ، واحتبس عن النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو ماشأن ثابت أشتكى ؟ قال سـعد : إنه لجاري وماعلمت منه بشكوى، قال: فأتاه سعد فذكر له قول النبي ﷺ فقال ثابت : أُنزلت هذه الآية ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتا على رسول الله ﷺ فأنا من أهل النار ، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : بل هو من أهل الجنة .

وفي رواية لمسلم من حديث أنس قال : كان ثابت بن قيس بن شمـاس خطيـب الأنصار .. وذكر نحوه [1] .

---

(1) صحيح مسلم ، الإيمان رقم ١١٩ ص ١١٠ .

وجاء في رواية أبي عبد الله الحاكم لهذا الخبر أن النبي ﷺ قال : ياثابـت ألا ترضـى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة ؟ قال: بلى يارسول الله،فعاش حميدا وقُتل شهيدا يوم مسيلمة الكذاب .

وقال الحاكم : صحيح من شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة ، وأقره الذهبي [1] .

وهكذا بلغت الخشية بثابت بن قيس بن شماس إلى حد المرض مـع أنـه لم يكـن مقصودا بتلك الآية ، ولكن لما كان خطيب النبي ﷺ في المناسبات خشي أن يكون رفَـع صوته فوق صوته فأصابه ما أصابه ، وهذا دليل على قوة إيمانه وشدة استحضاره للحياة الآخرة ، وكانت تلك الخشية من ثابت وماتبعها من تأثره سببا في حصوله على تلـك البشارة الغالية من رسول الله ﷺ.

*　　*　　*

---

(1) المستدرك ٢٣٤/٣ .

مواقف في الورع والعفة والزهد –

(١٣)

من أخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

وعن حمزة بن عبد الله بن عمر رحمه الله ورضي عن أبيه وجده عن عبد الله بن عمر قال: خطرت هذه الآية ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمـران: ٩٢] فتذكرت ماأعطاني الله فما وجدت شيئًا أحب من جاريتي رميثة ، فقلت : هـذه حـرة لوجه اله ، فلولا أني لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها ، فأنكحها نافعا وهي أم ولـده [١] .

فهذا مثل من الإسراع في فعل الخيرات وتطبيق التوجيهات الإلهية وإن كانت مـن النوافل التي تقاوم رغبات النفس وأهوائها .

وهكذا يحلق السابقون بالخيرات في أجواء عالية من الاستقامة ونسيان الـذات في سبيل السمو نحو تطبيق الأهداف العليا للإسلام .

إن هوى النفس يظل مسيطرا على سلوك الإنسان مادام فكره يدندن حول المستقبل الدنيوي، ولكن حينما يكون المستقبل الأخروي هو الذي يشغل فكر الإنسان فإنه يتنازل طوعا واختيارا عن كثير من هواه ليحول ذلك إلى عمل صالح يرفع رصـيده في الحيـاة الآخرة .

ومن ذلك ماروواه الحافظ أبو نعيم من حديث قزعة قال: رأيت على ابن عمر ثيابـا خشنة- أو جشبة - [٢] فقلت له : يا أبا عبد الرحمن إني أتيتك بثوب لين مما يصـنع بخراسان، وتقر عيناي أن أراه عليك، فإن عليك ثيابا خشنة – أو جشبة – فقال: أرِنِيـه حتى أنظر إليه قال: فلمسه بيده وقال: أحرير هو ؟ قلت : لا إنه من قطـن ، قـال: إني أخاف أن ألبسه ، أخاف أن أكون مختالا فخورا ، والله لايحب كل مختار فخور .

---

(١) صفة الصفوة ٥٦٨/١ .

(٢) أي غليظة .

(٣) الحلية ٣٠٢/١ .

وهكذا ترك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ذلك اللباس مع أنه مباح خشية مشابهة أهل الفخر والخيلاء ، وفضل البقاء على لباسه الخشن لأنه أقرب إلى الزهد والتواضع .

ومن مواقفه رضي الله عنه في الخشية من الله تعالى مارواه الإمام أحمد من حديث البراء بن سليم قال: سمعت نافعا يقول : ماقرأ ابن عمر هاتين الآيتين قط من آخر سورة البقرة إلا بكى ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة :٢٨٤] ثم يقول : إن هذا لإحصاء شديد [(١)] .

وهذا يعد مثلا عاليا في تدبر كتاب الله عز وجل وحضور القلب معه وشدة الخشية منه بالرغم من تكرر تلاوته كثيرا ، وإن من يتصور حقيقةً أن الله تعالى سيحاسبه على ما يخفي ويعلن فإن خوفه من الله تعالى يعظم ومحاسبته لنفسه تشتد .

ومثل آخر رواه هشام بن يحيى الغساني عن أبيه قال : وجاء سائل إلى ابن عمر فقال لابنه: أعطه دينارا ، فلما انصرف قال له ابنه : تقبل الله منك يا أبتاه ، فقال: لو علمت أن الله يقبل مني سجدة واحدة وصدقة درهم لم يكن غائب أحب إلي من الموت ، أتدري ممن يتقبل ؟ إنما يتقبل الله من المتقين [(٢)] .

وواضح أن مقصود ولد عبد الله بن عمر هو الدعاء لا الخبر ، والدعاء جائز بل مطلوب من المسلم لأخيه ، ولكن من شدة خشية ابن عمر من الله تعالى فإنه قارن حالاً بين التقوى وقبول العمل ، فخشي أن لايكون من المتقين .

وهذا تواضع عظيم منه حيث لم يعد نفسه من المتقين مع أنه من أئمتهم حيث إنه من السابقين بالخيرات ، واستحضار سريع لكتاب الله تعالى ومافيه من هداية وبيان ، وإنما يدل ذلك على كثرة تلاوة كتاب الله تعالى مع التدبر لمعانيه .

وهذا منهج بليغ في التربية حيث يشد سامعيه إلى بذل الجهد للوصول إلى درجة المتقين ليتقبل الله تعالى أعمالهم الصالحة .

---

(١) صفة الصفوة ٥٧٦/١ .

(٢) صفة الصفوة ٥٨٦/١

وفيه فهم دقيق لمهمة المسلم في هذه الحياة ، حيث أحب الانتقال إلى الآخـرة لـو ضمن أن الله تعالى تقبل منه عمله الصالح ، ولكنه يواصل العمل عله يظفر بقبول من الله جل وعلا .

ومثل آخر رواه سمير الرياحي عن أبيه قال: شرب عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ماء مبردا فبكى فاشتد بكاؤه ، فقيل له : مايبكيك ؟ فقال:ذكرت آية في كتاب الله عز وجل ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ :٥٤] فعرفت أن أهل النـار لايشـتهون شيئًا شهو م الماء وقد قال الله عز وجل – يعني عن أهل النار ﴿ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ [الأعراف :٥٠] [1] .

وهو واقع مؤثر يدل على يقظة الضمير وصدق تمثل معاني الإسلام في النفوس .

إن صاحب القضية الذي يعيش لأجلها لابد أن يبرزها في كل مناسبة، وإن القضية التي كانت يمن على حياة ابن عمر هي الحياة الآخرة ومافيها من مشاهد أهـل الجنـة وأهل النار.

فحينما جيء له بالماء المبرد تذكر حالاً عذاب أهل جهنم وقول الله تعالى ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ فتذكر أن أشهي شيء إلى أهل النار هو الماء ، فحصـل لـه ماحصل من هذا التأثر والبكاء الشديد .

وذكر ابن الجوزي خبرا عن سفيان قال: أراد ابن عمر مرة الصدر من مكة فاتخذ له ابن صفوان سفرة – يعني طعاما لسفره – من نقي وفالوذج وأخيصة – يعني ألوانا من الطعام الفاخر- وبعث ا إليه ، فأُتيَ ا ، فلما نظر إليها بكى وقال : ماهكـذا كنـا ، ماشبعت منذ أسلمت ، وأمر ا فقسمت على أهل الماء ، ودعا بسفرته وقال:لاخير إلا فيما يبقى نفعه غدا [2] .

الله أكبر ما أعظمه من موقف !

---

(1) صفة الصفوة ٥٧٨/١ .

(2) صفة الصفوة ٥٧٥/١ .

إذا كنت يا ابن عمر تبكي لرؤية مظاهر الدنيا وشيء من حياة الترف فلَكَم بكـى أناس حسرة على الحرمان منها !

ولكن ما أبعد الفرق بين مطلبك الأسمى ومطالب هؤلاء الدنِية !

إنه يمثل البعد الشاسع بين منـزلة الآخرة ومنـزلة الدنيا .

وإذا كان أبناء الدنيا من أجلها يعملون ومن أجلها يفرحون ويحزنون ، فهنيئًا لـك يا ابن عمر أن حظيت بتوفيق الله تعالى لتكون من عباد الله المخلصين الذين وضعوا نصب أعينهم في هذه الحياة ذلك الهدف الأعلى ، ألا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة .

من أخبار سعيد بن عامر بن حذْيم رضي الله عنه :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر عبد الرحمن بن سابط قال : دعا عمر بن الخطـاب رجلا من بني جمح يقال له سعيد بن عامر بن حذيم فقال له: إني مستعملك علـى أرض كذا ، فقال له: لاتفتني يا أمير المؤمنين فقـال : والله أدعـك ، قلـدتموها في عنقـي وتركتموني ، فقال عمر – يعني بعد أن ولاه على عمله - : ألا نفرض لك رزقا ؟ قال: قد جعل الله في عطائي مايكفيني دونه- أو فضلا على ما أريد - .

قال : وكان إذا خرج عطاؤه ابتاع لأهله قو م وتصدق ببقيته ، فتقول امرأته: أين فضل عطائك ؟ فيقول لها : قد أقرضته ، - يعني بذلك الصدقة – فأتاه ناس فقالوا : إن لأهلك عليك حقا ولأصهارك عليك حقا ، فقال : ما أنا بمستأثر عليهم ولا بملتمس رضا أحد من الناس لطلب الحور العين ، ولو اطلعت خيرة من خيرات الجنة لاشـرقَت لهـا الأرض كما تشرق الشمس ، وما أنا بمتخلف عن العنق الأول بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول " يجمع الله عز وجل الناس ليوم الحساب فيجئ فقراء المؤمنين فَيزفون كما يزِف الحمام – يعني يسرعون – فيقال لهم : قفوا عند الحساب فيقولون : ماعندنا حساب ولا آتيتمونا شيئًا [1] ، فيقول لهم ر م: صدق عبادي، فيفتح لهم باب الجنة فيدخولو ا قبل الناس بسبعين عاما " .

([1])في الإصابة لابن حجر من رواية أبي يعلى والحسن بن سفيان والبغوي "والله ماكان لنا شيء نحاسب عليه" – ٤٧/٢-.

فبلغ عمر أنه يمر به كذا وكذا لايدخن في بيته فأرسل إليه عمر بمال، فأخذه فصرره صررا فتصدق به يمينا وشمالا ، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول " لو أن حوراء أطْلَعت إصبعا من اصابعها لوجد ريحها كل ذي روح " فأنا أدعهن لكن ! فو الله لأنتن أحرى أن أدعكُن لَهن منهن لَكُن (١) .

وعن مالك بن دينار قال: لما أتى عمر رضي الله عنه الشام طاف بِكُورِها – يعني قراها- قال: فنزل بحضرة حمص فأمر أن يكتبوا له فقراءهم ، قال: فَرفع إليه الكتاب فإذا فيه سعيد بن عامر بن حذْيم أميرها ، فقال: من سعيد بن عامر ؟ قالوا : أميرنا ، قال: أميركم ؟ قالوا : نعم، فعجب عمر ، ثم قال : كيف يكون أميركم فقيرا ؟ أين عطاؤه ؟ أين رزقه ؟ (٢) .

قالوا : يا أمير المؤمنين لايمسك شيئًا ، قال: فبكى عمر ، ثم عمد إلى ألف دينار فصرها ثم بعث ا إليه وقال: أقرئوه مني السلام وقولوا : بعث ذه إليك أمير المؤمنين تستعين ا على حاجتك، قال: فجاء ا إليه الرسول فنظر فإذا هي دنانير ، قال: فجعل يسترجع ، قال: تقول امرأته : ماشأنك يافلان أمات أمير المؤمنين ؟ قال: بل أعظم من ذلك ، قالت : ما شأنك ؟ قال: الدنيا أتتني ، الفتنة دخلت علي ، قالت : فاصنع فيها ماشئت ، قال: عندك عون ؟ قالت: نعم قال: فأخذ دريعة – يعني ثوبا – فصر الدنانير فيها صرارا ، ثم جعلها في مخلاة ، ثم اعترض جيشا من جيوش المسلمين فأمضاها كلها ، فقالت امرأته : رحمك الله لو كنت حبست منها شيئا نستعين به ، قال: فقال لها : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : " لو اطلعت امرأة من نساء الجنة إلى أهل الأرض لملأت ريح مسك " وإني والله ماكنت لأختارك عليهن ، فسكتت (٣) .

* * *

---

(١) حلية الأولياء ٢٤٦/١ ، صفة الصفوة ٦١١/١ .

(٢) العطاء هو الذي يشترك فيه جميع أفراد الأمة ، والرزق هو المال الذي يأخذه الولاة مقابل التفرغ للولاية .

(٣) صفة الصفوة ٦٦٤/١ .

ـ مواقف في الورع والعفة والزهد ـ

(١٤)

من أخبار أبي سعيد الخدري رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قـال: أصـبحت وليس عندنا طعام وقد ربطت حجرا من الجوع ، فقالت لي امرأتي : أئت رسول الله ﷺ فاسأله فقد أتاه فلان فسأله فأعطاه ، وأتاه فلان فسأله فأعطاه ، فقلت: لا حتى لا أجـد شيئا ، فطلبت فلم نجد شيئا فأتيت النبي ﷺ وهو يخطب ، فأدركت من قولـه : " مـن يستغن يغنه الله ومن يستعفف يعفه الله" قال: فما سألت أحدا بعده ، ومازال الله يرزقنـا حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكير أموالا منا، رضي الله عنه [1] .

فهذا مثل من العفة عن المال مع الضرورة إليه طلبا لرضوان الله تعالى ، وهذا مثل من اليقين والثقة بوعد الله جل وعلا ، فأبو سعيد سعد بن مالك الخدري رضي الله عنه ما أن سمع كلام النبي ﷺ في الحث على العفة وما اشتمل عليه من الوعد بإغناء الله سبحانه للعبد المحتاج وإعفافه برزق من عنده إذا هو أعف نفسه عن المسألة حتى ترك ماكان عازما عليه من ذلك واستمر على تلك العفة حتى رأى تحقق وعد الله جل وعلا فيه ، فكان بعد ذلك من الأغنياء .

من أخبار سهيل بن عمرو رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي عن ابن قمادين قال : لم يكن من كبراء قريش الذين تـأخر إسلامهم فأسلموا يوم فتح مكة أكثر صلاة ولاصوما ولاصدقة ولا أقبل على مايعنيه مـن أمر الآخرة من سهيل بن عمرو ، حتى إن كان لقد شحب لونه ، وكان كثير البكاء رقيقا عند قراءة القرآن، لقد رئي يختلف إلى معاذ بن جبل يقرئه القرآن وهو بمكة حتى خـرج معاذ من مكة فقال له ضرار بن الخطاب : يا أبا يزيد تختلف إلى هذا الخزرجي يقرئـك القرآن ؟ ألا يكون اختلافك إلى رجل من قومك من قريش ؟ فقال : ياضرار هذا الـذي صنع بنا ماصنع حتى سبقنا كل السبق، أي لعمري أختلف إليه ، لقد وضع الإسلام أمـر

---

(1) صفة الصفوة ٧١٥/١ ، وقول النبي ﷺ أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣ /٤ .

الجاهلية ، ورفع الله بالإسلام قوما كانوا لايذكرون في الجاهليـة، فليتنـا مـع أولئـك فتقدمنا[1] .

فهذا الخبر يحتوي على قبس من نور الهداية بعد ظلام الغواية ، فلقد كان أبو يزيـد سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي من أعظم المناوئين للإسلام قبل فتح مكة ، وهـو الذي أبرم شروط الصلح الجائرة على المسلمين يوم الحديبية ، ولكنه بعـدما اهتـدى إلى الإسلام تحول إلى إنسان آخر.. لقد كان الهدف الذي يسعى له قبل أن يسـلم هـو أن يكتسب شيئا من مجد الدنيا وعزها، ولم يكن مؤمنا بالآخرة حتى يحسب لهـا حسـابا ، وكان من أجل المجد الدنيوي يقف ضد دعوة الإسلام بإصرار وشدة ، لأن الإسـلام في نظره يحجب عنه المنـزلة الاجتماعية العالية التي وصل إليها، ولكنه بعد أن أسلم أدرك أن الهدف الأعلى للإنسان هو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادةُ الأخروية ، وعرف أن الدنيا بما فيها من مال ومجد ماهي إلا معبر للآخرة ، فأدرك بثاقب بصره أن الاشتغال بالدنيا عن الآخرة حماقة وطيش ، وأن العقل السليم يقتضي منه أن يشتغل بالغاية ، وأن يسخر لهـا الوسيلة ، فكان مكبا على الأعمال الصالحة من صلاة وصيام وصدقة وجهاد ، حتى مات شهيدا يوم اليرموك رضي الله عنه .

ومن قوة دينه ورسوخ يقينه أنه لم يلتفت للعصبية القبلية ، فجعل من نفسـه وهـو الكبير السن والمنـزلة في قومه تلميذا لأحد شباب الأنصار يعلمه القرآن ، ولما اعتـرض عليه في ذلك ضرار بن الخطاب أبان له بأن تلك التفرقة القبلية والاعتزاز بالقوم من أمـر الجاهلية ، وأظهر فضل السابقين إلى الإسلام وإن كانوا مملوكين فضلا عن أن يكونوا من قبائل أخرى .

من أخبار أبي هاشم بن عتبة رضي الله عنه :

ومن ذلك ما أخرجه أبو عيسى الترمذي والنسائي من حديث أبي وائل رضي الله عنه قال: جاء معاوية إلى أبي هاشم بن عتبة وهو مريض يعوده ، فوجده يبكي ، فقال : ياخالُ مايبكيك؟ أوجع يشئزك [أي يقلقك] أم حرص على الدنيا ؟ قال: كلا ، ولكن رسـول

---

(1) صفة الصفة ٧٣١/١ – ٧٣٢ .

الله عهد إلينا عهدا لم آخذ به ، قال: وما ذلك ؟ قال: سمعته يقول : إنما يكفي من جمـع المال خادم ومركب في سبيل الله، وأجدني اليوم قد جمعت [(١)] .

وفي رواية : فلما مات حصل ما خلف فبلغ ثلاثين درهما ، وحسبت فيه القصعة التي كان يعجن فيها وفيها كان يأكل [(٢)] .

فهذا مثل من الخوف من الله تعالى وإحساس قوي ودقة في محاسبة النفس مـن هـذا الصحابي الجليل أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة القرشي ، حيث ذكر وهو مريض ما أوصاهم به رسول الله ﷺ من الزهد في الدنيا والتقلل منها ، فبكى من خشية الله تعالى ، مع أنـه كان من الزاهدين ، حيث لم يبلغ ما خلفه بعد موته ثلاثين درهما ، ولكن من شدة خشيته تصور ماعنده من القليل كثيرا، وهذا دليل على قوة الإيمان وشدة استحضار عظمـة الله تعالى والدار الآخرة .

وهذا الذي بكى مما تصور عدم تحقيقه ليس واجبا شرعا ، لأنه لم يترك واجبـا ولم يرتكب محرما، وإنما هو من كمال الدين ، ولكن أهلَ الطموح نحو الكمـال في الـدين يسوؤهم ويقض مضاجعهم مايشعرون به من نقص في الحسنات وهم قادرون علـى أن يبلغوا الكمال .

من أخبار عبد الله بن السعدي رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث حويطب بن العزى رضي الله عنه أن عبد الله ابن السعدي رضي الله عنه [(٣)] أخبره أنه قدم على عمر رضي الله عنه في خلافته فقال له عمر : ألم أحدث أنك تلي من أعمال الناس أعمالا فإذا أُعطيت العمالة كرهتها؟ فقلت: بلى ، فقال عمر : ماتريد إلى ذلك ؟ قلت : إن لي أفراسا وأعبدا وأنا بخير ، وأريد أن تكون عمالتي صدقة على المسلمين ، قال: عمر : لاتفعل فإني كنت أردت الذي أردت

([1]) سنن الترمذي رقم ٢٣٢٨ في الزهد ، باب في هم الدنيا وحبها ، سنن النسائي ٢١٨/٨ في الزينة ، باب اتخاذ الخادم.

([2]) جامع الأصول ٦١٢/١ .

([3]) هو من بني عبد شمس العامري القرشي وإنما قيل له السعدي لأنه كان مسترضعا في بني سعد (الفتح١٥١/١٣).

فكان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول : أعطه أفقر مني حتى أعطاني مرة مالاً فقلت : أعطه أفقر إليه مني ، فقال النبي ﷺ : "خذه فتموله وتصدق به ، فما جاءك من هذا المال – وأنت غير مشرف ولاسائل – فخذه ، وإلا فلا تتبعه نفسك" [1] .

فهذا من أمثلة العفة ، حيث كان عبد الله بن السعدي رضي الله عنه يعمل للمسلمين أعمالا يستحق عليها الأجرة ، ثم يأبى أن يأخذها ليكون أجره الأخروي كاملا ، فأرشده أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى ما أرشده إليه النبي ﷺ ، حيث يجمع بين عملين صالحين : التعفف عن مال المسلمين العام ، والتصدق به على الفقراء .

من أخبار الأمم الماضية :

من ذلك ماذكره وهب بن منبه اليماني قال : أتى رجل من أفضل أهل زمانه إلى ملك كان يفتن الناس على أكل لحم الخنزير ، فأعظَم الناس مكانه وهالَهم أمره ، فقال له صاحب شرطة الملك – سرا بينه وبينه - : أيها العالم اذبح جديا مما يحل لك أكله ثم ادفعه إلي حتى أصنعه لك على حدته ، فإذا دعا الملك بلحم الخنزير أمرت به فوضع بين يديك فتأكلَ منه حلالا ، ويرى الملك والناس أنك إنما أكلت لحم الخنزير ، فذَبح ذلك العالم جديا ، ثم دفعه إلى صاحب الشرطة فصنعه له ، وأمر الطباخين إذا أمر الملك بأن يقدم إلى هذا العالم لحم الخنزير أن يضعوا بين يديه لحم هذا الجدي ، واجتمع الناس لينظروا أمر هذا العالم فيه ، أيأكل أم لا ! وقالوا : إن أكل أكلنا وإن امتنع امتنعنا ، فجاء الملك فدعا لهم بلحوم الخنزير فوضعت بين أيديهم ، ووضع بين يدي العالم لحم ذلك الجدي الحلال المذكى .

فألهم الله ذلك العالم فألقى في روعه وفكره ، فقال : هب أني أكلت لحم الجدي الذي أعلم حله أنا فماذا أصنع بمن لايعلم ؟ والناس إنما ينتظرون أكلي ليقتدوا بي ، وهم لايعلمون إلا أني إنما أكلت لحم الخنزير ، فيأكلون اقتداء بي ، فأكون ممن يحمل أوزارهم يوم القيامة ، لا أفعل والله وإن قُتلت وحرقت بالنار ، وأبى أن يأكل ، فجعل صاحب الشرطة يغمز إليه ويرمئ إليه ويأمره بأكله ، أي إنما هو لحم الجدي ، فأبى أن يأكل ، ثم أمره الملك أن يأكل فأبى فألحوا عليه فأبى، فأمر الملك صاحب الشرطة بقتله .

---

(1) صحيح البخاري رقم ٧١٦٣ ، الأحكام (١٣/١٥٠) .

فلما ذهبوا به ليقتلوه قال له صاحب الشرطة : مامنعك أن تأكل من اللحم الـذي ذكيته أنت ودفعته إلي ؟ أظننت أني أتيتك بغيره وخنتك فيما ائتمنتني عليـه ؟ ماكنـت لأفعل والله ، فقال له العالم : قد علمت أنه هو ولكن خفت أن يتأسى الناس بي ، وهـم إنما ينتظرون أكلي منه ولايعلمون إلا أني إنما أكلت لحم الخنـزير وكذلك كل من أريـد على أكله فيما يأتي من الزمان يقول: قد أكله فلان ، فأكون فتنةً لهم ، فقُتل رحمه الله [1]

فهذا الخبر من روائع الأخبار التي حفظها وهب بن منبه اليماني رحمه الله تعالى عـن أهل الكتاب، ورواية هذا الخبر وأمثاله جائزة لقول رسول الله ﷺ " حـدثوا عـن بـني إسرائيل ولاحرج"[2] ولكونه موافقا لما جاء في شريعة الإسلام .

وقد كان وهب بن منبه من أوعية العلم ، ومن أهل الصلاح والعبادة ، وهـو مـن التابعين .

أما ذلك العالم الرباني الذي أخبر عنه وهب فقد كانت همته متوجهة إلى الآخرة وإلى تذكر موقفه للحساب بين يدي الله تعالى ، فقد تذكر أن الله تعالى سائله عن تلك الأمـة التي ستقتدي به وسترتكب الإثم بسببه ، فحالفه توفيق الله تعالى وهداه عقله السليم إلى أن النجاة من عذاب الدنيا مطلب رخيص لأنه لايعادل ذرة من عذاب الآخرة ، وأن سعادة الدنيا لاتعدل ذرة من سعادة الآخرة ، فقرر الامتناع من أكل ذلك اللحم مع يقينه بأنـه من اللحم الحلال ، حتى لايفتن الناس في عصره ومن يأتون بعد ذلك ، حيث إنه سيظهر للناس أنه قد أكل لحم الخنـزير .

وهذا مثل رفيع في الورع والخشية ، وذلك مبني على المحافظة على اسـتقامة النـاس وهدايتهم ، وهذا مطلب مهم في الإسلام .

هذا وإن الورع من أفضل العبادات كما جاء في قوله رسول الله ﷺ :" يا أبا هريـرة كن ورعا تكن أعبد الناس " أخرجه الإمام ابن ماجـه ، وقـال البوصـيري : إسـناده حسن[3] .

---

(1) البداية والنهاية ٤/٩ .

(2) صحيح البخاري ، أحاديث الأنبياء ، رقم ٣٤٦١ (٦/٤٩٦) .

(3) سنن ابن ماجه رقم ٤٢١٧ ، كتاب الزهد .

- مواقف في الورع والعفة والزهد –

(١٥)

من أخبار أبي مسلم الخولاني رحمه الله :

من الأخبار الواردة في ذلك ماذكره الحافظ أبو نعيم في ترجمة أبي مسلم الخولاني رحمه الله تعالى من حديث عثمان بن عطاء عن أبيه قال : كان أبو مسلم الخولاني إذا انصرف إلى منزله من المسجد كبر على باب منزله فتكبر امرأته ، فإذا كان في صحن داره كبر فتجيبه امرأته وإذا بلغ بيته كبر فتجيبه امرأته ، فانصرف ذات ليلة فكبر عند باب داره فلم يجبه أحد ، فلما كان في الصحن كبر فلم يجبه أحد ، فلما كان عند باب بيته كبر لم يجبه أحد ،وكان إذا دخل بيته أخذَت امرأته رداءه ونعليه ، ثم أتته بطعامه ، قال: فدخل البيت فإذا البيت ليس فيه سراج ، وإذا امرأته جالسة في البيت منكسة تنكُت بعود معها ، فقال لها : مالك ؟ قالت:أنت لك منزلة من معاوية وليس لنا خادم ، فلو سألته فأخدمنا وأعطاك ، فقال : اللهم من أفسد علي امرأتي فأعم بصرها .

قال : وقد جاءا امرأة قبل ذلك فقالت لها : زوجك له منزلة من معاوية ، فلو قلت له يسأل معاوية يخدمه ويعطيه عشتم .

قال : فبينا تلك المرأة جالسة في بيتها إذ أنكرت بصرها ، فقالت : مالسراجكم طَفِئَ ؟ قالوا: لا، فعرفَت ذنبها فأقبلَت إلى أبي مسلم تبكي وتسأله أن يدعو الله عز وجل لها أن يرد عليها بصرها .

قال : فرحمها أبو مسلم فدعا الله لها فرد عليها بصرها [١] .

أبو مسلم الخولاني هو عبد الله بن ثُوب الخولاني اشتهر بكنيته ، كان مجاب الدعوة ، وأبرز مواقفه وقوفه أمام الأسود العنسي الذي ادعى النبوة ، فأوقد له العنسي نارا وألقاه فيها فلم تضره ، وهذه من الكرامات المشهورة [٢] .

وقد جاء في هذا الخبر أن أبا مسلم إذا انصرف إلى بيته كبر ، وهكذا يكون حضور القلب الصادق مع الله تعالى ، فإيذانه أهله بحضوره تكبير لله تعالى ، وكأنه يشعر أهله

([١]) حلية الأولياء ١٢٩/٢ .

([٢]) وقد ذكر خبره هذا في " مواقف في الشجاعة والجرأة " للمؤلف .

ومن في بيته بأن الله تعالى أكبر من كل شيء فلا يليق بالمسلم أن يشغله عـن الله تعـالى شيء ، وما الذكر اللساني إلا تنبيه للقلب ليكون معمورا بذكر الله جل وعلا واستشـعار عظمته وجلاله ، وما وصل السابقون بالخيرات إلى ماوصلوا إليه إلا بمحاولـة اسـتدامة حضور القلب مع الله تعالى .

وكان أبو مسلم يعيش عيشة الزهد والقناعة وكان قد ربى امرأته على هذه العيشة ، فلا خادم عنده ولايهتم بشيء من كماليات الحياة التي قد يصرفه الاشتغال ا عما هـو أجل وأعلى وهو استدامة ذكر الله عز وجل والاجتهاد في عبادته .

لقد كان زاهدا في الدنيا مع مقدرته على اكتسا ا والتوسع فيها وظلت امرأته معه في تلك الحياة سامعة له مطيعة إلى أن أنكر منها ذلك التصرف الذي طلبت فيه التوسع في المعيشة وتوفير الخادم لها مادام له حظْوة عند أمير المؤمنين .

لقد أدرك أبو مسلم حالاً أن امرأةً من ذوات الكيد والإفساد قـد دخلـت بيتـه فأفسدت عليه أهله، حيث حولَت قناعتها ورضاها بذلك العيش المتواضـع إلى سـخط وتضجر ومطالبة برفع مستوى المعيشة حين تبين لها أن زوجها قادر على ذلك .

ولم يكن عند أبي مسلم سلاح يلجأ إليه إلا دعاء الله تعالى على من ظلمه وغير عليه أهله ، فدعا على المرأة التي فعلت ذلك بالعمى ، فقد أفسدت عليه بيته ، ولعلها أن تفسد بيوت آخرين من أصحابه الزهاد ، فيكون بذلك قد كف شرها وشر غيرها ممـن يبلغـه خبرها فيعتبر ا ويكف عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات .

وأصابت دعوته تلك المرأة ففقدت بصرها فجأة وأدركت سوء فعلها، كما تذكرت في الحال صلاح أبي مسلم فتبادر إلى ذهنها أنه قد دعا عليها .

وهكذا كانت هذه العقوبة التي نالتها تلك المرأة تذكيرا لها وعبرة لغيرها ممن يسيرون على ذلك الطريق .

ومن صفاته العالية عفة اللسان والزهد في الدنيا والنظر إلى الآخرة ، ومن أخباره في ذلك ماروي عن علقمة بن مرثد قال : انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين ، منـهم أبـو مسلم الخولاني فإنه لم يكن يجالس أحدا يتكلم في شيء من أمر الدنيا إلا تحـول عنـه ، فدخل ذات يوم المسجد فنظر إلى نفر قد اجتمعوا ، فَرجا أن يكونوا على ذكر الله تعالى ،

فجلس إليهم وإذا بعضهم يقول : قدم غلامي فأصاب كذا وكذا ، وقال آخر جهـزت غلامي ، فنظر إليهم وقال : سبحان الله أتدرون مامثلي ومثلكم ؟ كمثل رجل أصابه مطر غزير وابل فالتفت فإذا هو بمصراعين عظيمين فقال : لو دخلت هذا البيت حتى يـذهب هذا المطر ، فدخل فإذا البيت لاسقف لـه .. جلست إليكم وأنا أرجو أن تكونوا علـى ذكر وخير فإذا أنتم أصحاب دنيا .

وقال علقمة بن مرثد في وصف عبادته ومداومته على صيام النفل في كبر سـنه : وقال له قائل حين كُبر ورق : لو قصرت عن بعض ماتصنع ، فقال: أرأيتم لو أرسـلتم الخيل في الحلْبة ألستم تقولون لفارسها : دعها وارفق ا حتى إذا رأيتم الغاية لم تسـتبقُوا منها شيئًا ؟ قالوا : بلى ، قال: فإني قد أبصرت الغاية ، وإن لكل ساعة غاية ، وغاية كل ساعة الموت،فسابق ومسبوق[1] .

وهكذا كان هذا العابد الصالح يشق على نفسه بكثرة الصيام مع كبر سنه ولما لامه في ذلك المشفقون عليه أقنعهم ذا المثل البليغ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

من أخبار سالم بن عبد الله رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطـاب رحمه الله ورضي عن أبيه وجده ، قال: ولما حج هشام بن عبد الملك – يعني يوم أن كان أمير المؤمنين – دخل الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله ، فقال : ياسالم سـلني حاجـة ، فقال: إني لأستحيى من الله أن أسأل في بيته غيره ، فلما خرج سالم خرج هشام في أثـره فقال له : الآن قد خرجت من بيت الله فسلني حاجة ، فقال سالم : من حوائج الـدنيا أم من حوائج الآخرة ؟ قال: من حوائج الدنيا ، فقال سالم : إني ما سألت الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لايملكها ؟![2] .

فهذا مثل من تواضع أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك حيث كان يتفقد أهل العلم ويسأل عن حوائجهم ليقضيها ، وهذا دليل على فضله وأخلاقه العالية .

([1]) صفة الصفوة ١٠٩/٤ .

([2]) البداية والنهاية ٢٤٤/٩ .

ومثلٌ من الزهد البليغ والورع الدقيق يقدمه العالم سالم بن عبد الله بن عمر ، فهـو من زهده في الدنيا لم يسأل الله تعالى شيئا منها ، وهو سبحانه المالك لكل شيء فكيـف يسألها غيره ؟ وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه ، حيث كان الهدف الأعلى مـن وجود الإنسان في هذه الحياة واضحا أمامه ، ألا وهو ابتغاء رضوان الله تعـالى والجنـة ، كما قال الله جل وعلا في صفة الصحابة رضي الله عنهم ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الفتح :٢٩] ففضل الله هو الجنة ، ورضوانه أكبر من ذلك .

من أخبار طاوس بن كيسان رحمه الله :

ممن اشتهروا بالعفة والورع طاوس بن كيسان اليماني رحمه الله تعالى ، ومن أخباره في ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من خبر النعمان بن الزبير الصنعاني : أن الأمير محمد بن يوسف – أبو أيوب بن يحيى – بعث إلى طاوس بسبعمائة دينار ، وقال للرسول إن أخذها منك فإن الأمير سيكسوك ويحسن إليك .

قال : فخرج ا حتى قدم على طاوس الجند [(١)] ، فقال : يا أبا عبد الرحمن نفقـة بعث ا الأمير إليك، فقال : مالي ا من حاجة ، فأراده على أخذها بكل طريق فأبى أن يقبلها ، فغفل طاوس فرمى ا الرجلُ من كُوة في البيت ثم ذهب راجعا إلى الأمير وقال : قد أخذها فمكثوا حينا، ثم بلغهم عن طاوس مايكرهون – أو شيء يكرهونه – فقالوا : ابعثوا إليه فليبعث إلينا بمالنا، فجاءه الرسول فقال : المال الذي بعثه إليك الأمير رده إلينا ، فقال: ماقبضت منه شيئا ، فرجع الرسول إليهم فأخبرهم ، فعرفوا أنه صادق ، فقـالوا : انظروا الذي ذهب ا إليه ، فأرسلوه إليه ، فجاءه فقال: المال الذي جئتك به يا أبا عبـد الرحمن ، هل قبضت منه شيئا ؟ قال: لا قال: فقام إلى المكان الذي رمى به فوجدها كما هي وقد بنت عليها العنكبوت فأخذها فذهب ا إليهم [(٢)] .

وهكذا تحلى هذا العالم الجليل بالعفة والورع ، فأبى أن يأخذ من ذلك المال الـذي أراد به ذلك الأمير شراءه ليكسب ولاءه له ، وإذا كسب ذلك فإنه سيظفر بولاء الكثيرين ممن يحبون ذلك العالم ويحترمونه ، ولكن ذلك الأمير رأى أن موقف طاوس لم يتغير ، وأنه

---

(١) الجند جبل في اليمن ذكره ياقوت الحموي .

(٢) البداية والنهاية ٢٤٦/٩ – ٢٤٧ .

مازال يقف منه موقف الناقد المصلح ، فأراد أن يحرجه بطلب ذلك المال ، وهـو الـذي يعرف جيدا أن الإمام طاوس لن يدخر ذلك المال ، وإنما سيقسمه على الفقراء ، فكـان الأمر على ماجاء في هذا الخبر ورجع الحرج على ذلك الأمير الذي انكشف قصده مـن إهداء ذلك المال ، وهكذا يضرب علماء الإسلام أمثلة رائعة في الترفع عن الدنيا والسـمو نحو رضوان الله جل وعلا ونعيم الآخرة .

من أخبار عبد الملك بن مروان رحمه الله :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر سعيد بن بشير عن أبيه : أن عبد الملك بن مروان حين ثقل [١] جعل يلوم نفسه ويضرب بيده على رأسه وقال : وددت أني كنت أكتسب يوما بيوم مايقوتني وأشتغل بطاعة الله .

فُذكر ذلك لأبي حازم فقال : الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت مانحن فيه ولانتمنى عند الموت ماهم فيه [٢] .

نعم فالعبرة بما يختم للإنسان فيه من عمل ، ولقد أدرك عبد الملك بن مروان أنه في أثناء إمارته وماقبلها قد سفك الدماء وظلم ، ولما كان قد تربى على يد العلماء وحصـل في شبابه علما كثيرا فإنه قد أدرك عند وفاته أن ماكان يعمل له هو المجد الدنيوي وقد زال ، وأنه كان الأولى به أن يعمل للمجد الأخروي ولو كان مغمورا بسيط الحال يكتسـب رزق كل يوم بيومه .

وفي كلمة أبي حازم سلمة بن دينار رحمه الله تعالى دلالة على تفوق العلماء الربانيين في الرأي والحزم والتدبير .

* * *

---

(١) أي نزل به مرض الموت .

(٢) تاريخ دمشق ١٥٧/٣٧ .